سلسلة المعارف الإسلامية
للناشئة والشباب
(٤)

نور من القرآن

علي الأوسي

تحظى إصدارات المركز
بالمتابعة والتقويم والإشراف العلمي

نسخة مقروءة على النسخة المطبوعة
شبكة رافد للتنمية الثقافية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المركز

الحمد الله ربّ العالمين ، وأفضل الصلاة وأتم التسليم علىٰ نبينا المصطفىٰ وآله الهداة الميامين.

وبعد : يتجلّى اعجاز القرآن الكريم بكونه طرازاً خاصاً من القول لا يضاهيه شيء من فنون البيان بما فيه من عناصر الاعجاز البلاغي المتمثلة بالوضوح والقوة والجمال إلىٰ درجة تفوق مستوى البشر ، ويكفي أنه تحدّى الإنس والجنّ علىٰ أن يأتوا بسورة زاحدة من مثله وأخبر عن عجزهم ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، وسيظلّ هذا الاعجاز قائماً إلىٰ يوم الدين.

ولا يقتصر الاعجاز القرآني علىٰ قوة البيان وجمال الأسلوب ورشاقة المعنى وحسب بل يتعدّى ذلك إلىٰ روعة المفاهيم وقوة أثرها في المجتمع الإنساني ، منذ نزوله إلىٰ قيام الساعة فقد نزل القرآن الكريم في مجتمع اتسم بالجهل والضلال والشرك ، فكان له دور كبير في تهذيب الطباع وتنظيم السلوك ، وصقل النفوس من ربقة الشهوات وأسر الماديات وجعلها تحلّق في مدارج الكمال ومواطن الجلال ، وأسهم في تحرير العقل البشري من نير الجهل وقيود الأوهام وأدران الالحاد والشرك والضلال بما أسبغ عليه من نعمة العلم وما أفاض عليه من إخلاص العبودية للحق تعالى.

إن المفاهيم التي دعا إليها القرآن الكريم قد اكتسب صفة الخلود والاستمرار ، فهي ليست مفاهيم جامدة لا تنبض بالحياة كما هو شأن المفاهيم السائدة في الحضارة المادية المعاصرة كما اتسمت بالعمق والشمولية في علاج مشاكل الناس أينما كانوا وحيثما وجدوا ذلك لأن الكتاب الذي دعا إليها هو كتاب الرسالة الخاتمة

والدين الكامل والنعمة والنو المبين قال تعالىٰ : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾.

فلا انقطاع لمفاهيم الكتاب الكريم ولا نفاد لغرائبة واعجازه قال أمير المؤمنين عليه السلام : « القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق لا تفنىٰ عجائبه ولا تنقضي غرائبه ولا تكشف الظلمات إلّا به » .

وفي عصر تعصف فيه الفتن وتخلف فيه الكلمة نجد أنفسنا في أشد الحاجة إلىٰ الاهتداء بنور القرآن والاعتصام بهداه واتباع منهجه وتطبيق قواعده وأحكامه ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : «إذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم ، فعليكم بالقرآن ، فانه شافع مُشفَّع وما حل مصدَّق من جعله أمامه قادة إلىٰ الجنّة ، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار ».

ومن هنا فالكتاب الذي بين يديك هو خطوة علىٰ طريق الاهتداء بمنهج القرآن والتزوّد من مفاهيمه الخالدة حيث اختار المؤلف عدة آيات تعبّر عن مدلولات دقيقة تتفاعل مع واقع الناس ولعلّ أغلبها ينصبّ علىٰ أحد وسائل التعبير والبيان المهمة في القرآن وهي المثل القرآني لما له من أهمية فائقة في دقّة تصوير المعاني وتقريب المضامين وإثارة دواعي التفكّر والتذكّر ، قال تعالىٰ : ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾.

وقد تمكن الكاتب بما يمتلكه من أسلوب تعبيري شيّق أن يثير الأبعاد الفردية والاجتماعية للمفاهيم التي تطرقت إليها الآيات التي اختارها في وجدان الفرد المسلم ويجعلها تتفاعل مع أرض الواقع.

نسأل الله تعالىٰ أن يسهم هذا الاصدار في انفتاح جيل الشباب والناشئة علىٰ ثقافة القرآن ورسالته الخالدة واعجازه الباهر..

والله الهادي إلىٰ سواء السبيل. **مركز الرسالة**

المُقدَّمةُ

الحمد لله حمد الشاكرين وأفضل الصلاة وأشرف التسليم علىٰ رسول الإنسانية محمّد وآله الطيبين الطاهرين.

أشارت النصوص المباركة إلىٰ نورانية هذا القرآن العظيم الهادية إلىٰ الحق.

قال تعالىٰ : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا** ﴾ (١).

وقال جلّ شأنه : ﴿ **قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ** ﴾ (٢).

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام : « **ثمّ أنزل عليه الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحه وسراجاً لا يخبو توقّده** » (٣).

نختار من هذا النور القدسي حزماً نستضيء بها في مفهوم معين أو حالة أو حادثة وربما توجيه ليقف القارئ اللبيب علىٰ مضامين من هذه الأنوار لتسهم بدورها في وضوح الطريق ولتبدد ظلمة الأفكار البشرية المتربّصة لمواجهة الفكر القرآني الأصيل مثيرين الجانب الأجتماعي لهذه الحالات والوقائع والمفاهيم القرآنية المباركة ، ومبرزين بقدرٍ قيمة ما تتركه من بعد اجتماعي ؛ لما في ذلك العبد من حصة وافية وسهم عريض في إعادة الثقة بحركة الإنسان المسلم الذي ينتمي لهذه القيم والمبادئ من جهة ، ومن جهة أخرىٰ فان العبد

---

(١) سورة النساء : ٤ / ١٧٤.

(٢) سورة المائدة : ٥ / ١٥ . ١٦.

(٣) بحار الأنوار ٢١ : ٩٢.

الاجتماعي لهذه القيم والحالات والوقائع يشكل بنسيجه المنتظم واقعاً حضارياً يصارع ويقاوم ويبادر في أي معترك تفترضه طبائع الأمور والأشياء.

وإضافة إلىٰ ذلك فإن إثارة هذا البعد في المفاهيم التي يطرحها القرآن الكريم يعكس حيويتها وقدرتها علىٰ التفاعل مع الواقع في آن ومكان.

إن الحركية التي يمتلكها الطرح القرآني تمتد إلىٰ قدرته الفعلية علىٰ التعامل الاجتماعي والتفاعل مع الأشياء والحوادث والوقائع التي يتناولها ويتعامل معها بواقعية فهو ليس طرحاً مثالياً أو طرحاً ناقصاً يترك فراغاً ، انما هو طرح واقعي يتعامل مع ملابسات النزول ومع الحدث نفسه بقوانين معتبرة وأسس يألفها العقل السوي ، وفوق هذا كلّه يمتاز الطرح القرآني بربط الجسور وتوثيق الوشائج بين واقع الأشياء وبين الغيب وما يحتويه ، وهذه بحدّ ذاتها رسالة غاية في القدرة علىٰ التوليف بين الشاهد والغائب وبين الحسوس والمعنوي.

وبهذا التصوّر يستطيع القرآن الكريم أن يوقفنا علىٰ عوالم أُخرىٰ ، ويوثّق علاقة الإنسان بها وينقله من الواقع المحسوس المعاش إلىٰ واقع غيبي آخر يكون هدفاً وغاية لحركته اليومية.

وهوما نسعىٰ إلىٰ كشفة عبر هذه المختارات من القرآن الكريم التي اعتمدت بجانب كبير منها علىٰ المثل القرآني لما فيه من دقة التصوير ، وعمق المعالجة وسمو الغاية ، ورفعة الهدف.

آملين من الله تعالىٰ أن ينفع بها الشبيبة المسلمة فإنها أحوج ما تكون اليوم إلىٰ معرفة ما في تلك الاختيارات من قدرة علىٰ التفاعل مع المجتمع الإنساني في ماضية وحاضره ومستقبله.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين ، وصلّى الله علىٰ محمّد وآله الطاهرين.

المثل القرآني

المثل : تعني كلمة (المثل) : الشبه والنظير ، وجمعها أمثال ، ويقال في معناها أيضاً : الحجّة ، والحديث ، والعبرة ، ولا يشكّ أحد ما للامثال من دور كبير في ايضاح المعنىٰ ، فكلّ بني الإنسان في اجتماعهم الإنساني تراهم بتداولون الأمثال هادفين من ذلك تقريب الفكرة وتأكيد المضمون ، كما أن العلوم الطبيعية تسعى إلىٰ تحقيق أهدافها عبر المثل أيضاً وذلك من خلال تعدّد وسائلها الايضاحية ، وتجاربها المختبرية.

ان الطبيعة الإنسانية تأنس بالمحسوس وتطمئن به ، لذلك ينبغي علىٰ أصحات الرسالات وكتّاب التربية أن يطرحوا الفكرة مع الشاهد مجسّدة بجملة من الأساليب أخصّ منها المثال ، لما له من دور كبير في تجسيد المعاني وتوضيح المبهم وتشخيص الغايات ، قال تعالىٰ : ﴿ **وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ** ﴾ [1].

وروي عن رسول الله محمّد ﷺ قال : « **فإن القرآن نزل علىٰ خمسة وجوه : حلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال ، فاعملوا بالحلال ودعوا الحرام ، واعملوا بالمحكم ، ودعوا المتشابه ، واعتبروا بالأمثال** » [2].

---

(١) سورة الروم : ٣٠ / ٥٨.

(٢) الأمالي / الشيخ الطوسي : ٣٥٧ / ٧٤٢.

والمثل هو تشبيه الخفيّ بالجليّ والغائب بالشاهد ويتركّب من عناصر ثلاثة :

١ . الممثَّل له.

٢ . الممثَّل به.

٣ . وجه الشبه بينهما.

فان الممثّل به يمتلك قوة مؤثرة إما أن يكون حادثة واقعة أو ظاهرة طبيعية أو فكرة معتقداً بها ويسري هذا العنصر سريان المسلّمات في نفس الإنسان.

وأما الممثّل له فينبغي أن يحظىٰ بقسط عالٍ من الشأن والأهمية كموارد الاعتقاد والسلوك ، وأحياناً لغموض فيه يقصر الذهن عن ادراكه وتناوله ، أو لتأكيد المغنىٰ ووجه الشبه يكون أسرع تأثيراً حين تكون فيه مطاقبة فاعلة وسريعة بينهما وقد ذكروا في ضرب الأمثال جملة من الأغراض منها : التذكير والوعظ ، والحثّ ، والزجر ، والتقرير ، وتقريب المراد للعقل ، كما قيل في ضرب الأمثال تبكيت للخصم الشديد الخصومة وقمع لسورة الجامح ، وقد جاءت أمثال القرآن الكريم مشتملة علىٰ بيان تفاوت الأجر ، وعلىٰ المدح والذمّ ، وعلىٰ الثواب والعقاب ؛ وعلىٰ تفخيم الأمر أو تحقيره ، وعلىٰ تحقيق أمر أو ابطاله.

وينقسم المثل في القرآن الكريم إلىٰ قسمين :

١ ـ المثل الكامن غير الصريح كقوله تعالىٰ : ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا** ﴾ [1].

فهذه الآية المباركة تشبه المثل القائل « **خير الأمور أوسطها** » وكذلك قوله

---

(١) سورة الفرقان : ٢٥ / ٦٧.

تعالىٰ : ﴿ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [1].

يشبه المثل القائل « ليس الخبر كالعيان ».

٢ ـ المثل الظاهر المصرّح به : وهو النوع الذي يصرِّح فيه بالمثال ، وسنتكلّم عن هذا النوع من الأمثلة مبيّنين أمثلة القرآن الكريم وتقويم ذلك من خلال رؤية تفصيلية.

سلاح الكلمة

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ [2].

في الحياة الإنسانية بما تتضمّنه من صراح شامل بين مجموع المصالح والمفاسد ، تدخل الكلمة وتتّخذ لها مكانة هامّة في تحريك هذا الصراح وتحديد منطلقاته وتوجيه حركته ، وتتأطّر الكلمة بأطر جديدة ، وقد تتّخذ شكل المعتقد أحياناً فتكون مبعث حركة الأفراد ، وقد أخذت الكلمة عند الباحثين المحدثين دوراً كبيراً في صناعة الحرب الباردة إلىٰ جانب البارود المتفجّر في الحروب الملتهبة.

---

(١) سورة البقرة : ٢ / ٢٦٠.

(٢) سورة إبراهيم : ١٤ / ٢٤ ـ ٢٦.

وفي أهمية الكلمة يقول أمير المؤمنين عليه السلام : « **ربّ قول أنفذ من صول** » [1] ويقول عليه السلام : « **ربَّ كلام أنفذ من سهام** » [2].

وتختلف الكلمة في آثار ها وقوة إشعاعها وصلابة موقفها تبعاً لما تحتويه من خبث أو طيب فكم من بؤس أو حرب ضروس أطاحت برؤوس الآلاف ، وأحرقت الحرث والنسل ، وغيّبت البسمة من شفاه المحرومين ، وأحكمت العوز والفاقة في دنيا المستضعفين ، وكان ذلك كلّه بسبب خبث أسود أفرزته كلمة واحدة.

وقد تحدّث القرآن الكريم كثيراً عن الأُمم التي غاصت في وحل رذيلتها ، وقبرت في عارها وشنارها بسبب حالة اعراضية عن الهدىٰ ، ولّدتها ثقافة خبيثة وكلمة باطلة ، بينما نجد القرآن الكريم يؤكّد في مواطن كثيرة أُخرىٰ علىٰ مسؤولية الكلمة ودورها في صياغة المجتمع الإسلامي ، فقد نهىٰ وبشدّة عن الغيبة ، والنميمة ، والنفاق ، وقول الزور ، واشاعة الفاحشة في الذين آمنوا ، واضرابها ، وأكّد علىٰ صلاح ذات البين ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وهذا كلّه يعتمد علىٰ حركة الكلمة وماتحمله من مواصفات بناء ، أو تدمير لجسم المجتمع.

وفي كشف القرآن الكريم عن دور ومكانة الكلمة الطيبة في العمل الاجتماعي ، راح يمثّلها بالشجرة الطيّبة ، ذات الأصل الثابت ، والفرع السامق ، والثمر الآتي منها في كلّ حين :

---

(١) نهج البلاغة : الحكمة ٣٩٤.

(٢) غرر الحكم : الحكمة ٥٣٢٢.

فأي كلمة تلك التي توصف بالشجرة ذات العطاء ، وإنها لا تزحزحها الرياح والعواصف ، ولا تتراجع أمام ضغط الانحراف لثبوت أصلها ، وهي شامخة سامقة عالية تتنزّه عن القذارة بعلوّها ، ثمّ انها دائمة الثمر والعطاء ، فأيّ كلمة هذه ؟ في حين ان هناك كلمة فاقدة لكلّ عناصر القوّة المذكورة ، كالشجرة الخبيثة جمعت كلّ خبيث ، وتفرّغت من كلّ طيب ، لا تثبت تحت حرارة الصراع ورياح المعركة ، فهي لا تمتلك من الأرض عمقاً ، وانما تعيش جذورها تحت سطح الأرض مباشرة ، ما تلبث أن تسقط صريعة.

ويذكّر القرآن الكريم بدور الكلمة الطيّبة الثابتة في تثبيت المؤمنين وتمكينهم من الصراح أمام الباطل المهزوم ، فيقول تعالىٰ : ﴿ **يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ** ﴾ [1].

ففي صراع العقائد والطروحات تتأكّد الحاجة لعفّة الكملة قال الإمام الباقر عليه السلام : « **قولوا للناس أحسن ما تحبُّون أن يقال فيكم** » [2].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « **الكلمة الطيّبة صدقة** » [3] ، فهي من شأنها أن تكبر وتنمو دون أن تمحق أو تبطل.

---

(١) سورة إبراهيم : ١٤ / ٢٧.

(٢) الكافي ٢ : ١٦٥ / ١٠.

(٣) وسائل الشيعة / الحرّ العاملي : ٢٣٣ / ٦٤٢١.

خطاب المبعوثين

دأب القرآن الكريم في عرضه القصصي لا سيّما قصص المرسلين على إبراز محوَري الصراع ، فهناك طرفان لكلّ منهما حضارة ، وفكر ، وأسلوب ، وممارسة ، ولغة ، وأخلاقية.

فحضارة التوحيد والعلم والرحمة والبناء ، تقابلها حضارة الشرك والجهل والعدوان والتخريب ، وقد شهد تاريخ الإنسان الكثير من المواجهات الباردة والدامية بينهما ، ولتعدّد صور ومواقف هذا النزاع التاريخي المرير بين هذين المحورين ارتأينا أن نسلّط الضوء على طريقة التعامل والخطاب بينهما محاولين انتزاعها من واقع القصة القرآنية ، ولنأخذ مثالاً على ذلك قصة شعيب النبي عليه السلام .

بعث شعيب عليه السلام إلى أهل مدين ، وقيل بعث كذلك إلى « أصحاب الأيكة » ، فكانوا مترفين يحكمهم ملك جبار لا يطيقه أحد من ملوك عصره ، وكانوا ينقصون المكيال والميزان ، ويبخسون الناس أشياءهم ، ويكفرون بالله ويكذبون نبيّه ، وكانوا إذا اكتالوا يستوفون لأنفسهم.

في هذا الجوّ المشرك الجاهل العدواني والتخريبي انطلق نور رسالي ليتعامل بفكر إلهي ونفس كريم فوضع يده على سرّ المأساة فدعاهم إلى التوحيد وعبادة الله ، معالجاً فيهم الجهل ﴿ **مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ** ﴾ ثمّ نهاهم عن الممارسات السيّئة بحقّ الآخرين ، كما نهاهم عن العدوانية بقطع الطرق وتخويف الآخرين المخالفين لهم بالقتل ﴿ **وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ**

تُوعِدُونَ ... ﴾ [1].

وراح شعيب عليه السلام يدخل معهم في حوار هادئٍ ، فلم ينههم عن سيّئة إلّا وبيّن لهم خطرها فكانوا يهدّدونه ويتوعّدونه بالاخراج من قريته ونفيه ، ثمّ أخذوا يتجاهلون نداء اته ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ [2] ولم يأبه بكلّ هذه التهديدات ، لكن حين دعوه للدخول في ملّتهم الكافرة المنحرفة أجابهم : ﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ﴾ [3].

هكذا يقطع معهم الحوار فقد كان عليه السلام وضع لنفسه خطوطاً حمراء لا يتجاوزها في التعامل ، ومن جهة أُخرىٰ لاحظنا رفعة وسمو الأفكار التي عاشها ودعاهم إليها ، بينما نراهم يخلدون إلىٰ التراب وحقارة المادة ، ويتشبّثون بمنافع ومصالح محدودة حتىٰ لو انتهكت فيها حقوق الآخرين وصُودرت حريّاتهم ، بينما كان شعيب بفعل عطاءات الوحي الإلهي يدعوهم إلىٰ التحرّر والانعتاق والبناء الحضاري والعلم وممارسة الخلق الرفيع السمح ، فما أبعد الشقّة بين المحورين !.

ومن هنا فقد استحقّ شعيب عليه السلام والذين آمنوا معه الخلود والبقاء والرحمة ، أمّا الذين ظلموا فقد استحقّوا العذاب واللعن الأبدي بما كسبت أيديهم. قال تعالىٰ : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا

---

(١) سورة الأعراف : ٧ / ٨٦.

(٢) سورة هود : ١١ / ٩١.

(٣) سورة الأعراف : ٧ / ٨٩.

بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ [1].

التناجي بالإثم والعدوان

قال تعالىٰ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [2].

النجوىٰ اسلوب وممارسة تستخدم في الصلاح والبناء ، وقد تستخدم في الايذاء والعدوان ، فهي قوّة محايدة ، لكن الإنسان بنواياه وأفكاره وفعله يلقي عليها ظلال القبول والرفض.

والنجوىٰ حين تتجسّد في مجالات الإثم أو العدوان أو معصية الرسول ﷺ ، نجد القرآن الكريم ينهىٰ عنها ويرجعها إلىٰ الشيطان حصراً ، ويدفع آثارها عن المؤمنين ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ .. ﴾ [3] .. كما نهىٰ عنها أهل البيت عليهم السلام ، قال الإمام الصادق عليه السلام : « **إذا كان القوم ثلاثة فلا يتناجىٰ منهم اثنان دون صاحبهما ، فإن ذلك ممّا يحزنه ويؤذيه** » [4]. وذلك لما تتركه من أثر سيّء علىٰ العلاقة الاجتماعية ، وما تبثّه من الريب والشكوك ، وتزرعه من عدم الثقة في مفاصل العلاقات الاجتماعية ، فينهدّ البناء ، وتضعف عرى الودّ والانسجام ، وهذا ما

---

(١) سورة هود : ١١ / ٩٤ . ٩٥.

(٢) سورة المجادلة : ٥٨ / ٩.

(٣) سورة المجادلة : ٥٨ / ١٠.

(٤) الكافي ٦٦٠ : ٢ / ١.

يرفضه الإسلام كحضارة ترعىٰ البناء الصالح.

ولكن النجوىٰ باعتبارها ممارسة خيرة إذا ما استخدمت في الاتجاه الآخر ، فإن القرآن الكريم يدعو إليها ما دامت في حقول البّر والتقوىٰ.

والقرآن الكريم يقابل بين حقول كلّ من صنفي النجوىٰ ، فيبيّن لنا ان طريق الخير مفتوح لسالكيه وإلّا انكفأت إرادة الناس عن فعل البّر ووجوه الخير ، فالنجوىٰ يمكن أن توظّف بالطريقة المثلىٰ فيتشاور المؤمنون ويسر الصالحون بعضهم بعضاً في حقول الخير المختلفة والمشاريع والبرامج التي فيها رضا الله بعيداً عن خطورة العدوان ونجاسة الآثام ، في وقتٍ يلحّ البعض ويوغل في تكريس الإثم في الذات والمجتمع.

ومن جهة أُخرىٰ ، نرىٰ النهي ينطلق من دائرة الذات ليدخل دائرة الاجتماع الإنساني من الإثم الفردي إلىٰ العدوان علىٰ المجتمع والآخرين ، انطلاقاً من قداسة الهدف التغييري الذي ينشده القرآن الكريم لبناء مجتمع متطهّر فاضل بعيد عن كلّ انحراف ، ليؤسّس طهر المفاهيم واقعاً معاشاً وسلوكاً تتلألأ علىٰ جنباته مفاهيم البرّ وبأوسع معانيه وتزيّنه التقوىٰ بأبهىٰ حللها.

فعلينا أن ننتهي عن النجوىٰ التي نهىٰ عنها الله في كتابه العزيز ؛ لأنه تعالىٰ يعلم خفيّات القلوب ، قال تعالىٰ : ﴿ **أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ** ﴾ (١).

وعلينا أن نتبع النجوىٰ التي أمر الله بها ؛ تؤدي إلىٰ بناء الشخصية المؤمنة وإلىٰ سلوك سُبل النجاة ، قال أمير المؤمنين عليه السلام : « **أفضل النجوىٰ ما كان**

---

(١) سورة التوبة : ٩ / ٧٨.

على الدين والتقىٰ ، وأسفر عن اتّباع الهُدىٰ ومخالفة الهوىٰ » [1].

الاستقامة طريق العمل

قال تعالىٰ : ﴿ **فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ [2].

يؤكد القرآن الكريم علىٰ أساس عريض في حركة المؤمنين في كلا المجالين النظري والتطبيقي ، وهذا الأساس هو مفهوم الاستقامة والصراط المستقيم ، وجاءت هذه التأكيدات في ما يربو علىٰ أربعين موطناً موزّعة علىٰ أكثر من عشرين سورة ، وهذا يكسب المفهوم أهمية بلحاظ مساحات عديدة في حركة المؤمنين العبادية والمعاملاتية ، وعلىٰ المستوىٰ النظري كذلك.

والملاحظ ان هذه التأكيدات توزّعت علىٰ قسمي القرآن المكي والمدني ، وبعبارة أُخرىٰ في المساحة العقائدية والتربوية والتشريعية والمنهجية كذلك ، ولكنها كانت واضحة متكرّرة أكثر في القسم المكّي ، ممّا يؤكّد أهمية المساحات الأولىٰ ، وممّا ذكر يمكننا بيان جانب من أهمية هذا المفهوم :

فالاستقامة : هي الاستمرار في جهة واحدة ، وألّا يعدل يميناً ولا شمالاً [3] ، وهي ضد الاعوجاج ، وقوله تعالىٰ : ﴿ **فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ** ﴾ موجّهة إلىٰ الرسول صلى الله عليه وآله وللمؤمنين ، أي كن ثابتاً علىٰ الدين موفياً حقّة طبق ما أمرت

---

(١) غرر الحكم / الآمدي : الحكمة (٣٣٠١).

(٢) سورة هود : ١١ / ١١٢.

(٣) مجمع البيان ٥ : ٣٠٣.

بالاستقامة [1] ، وهذا المعنىٰ متأتٍ من القيام الذي فيه قوام الشيء وأحسن حالات الظهور له ، فحين يكون الشيء قائماً يختلف عما هو منبطح أو جاثٍ أو متسلّق أو قاعد أو منكبّ.

أما الاستقامة فهي تتطلّب القيام من ذلك الشيء ، فاستقامة الطريق : اتصافه بما يقصد من الطريق كالاستواء والوضوح ، واستقامة الإنسان في أمر : أن يطلب من نفسه القيام به وإصلاحه بحيث لا يتطرّق إليه فساد ولا نقص [2] ، وهذه الاستقامة هي التي تحفظ للإنسان هويّته وجوهر تحرّكه السليم.

ومهما يكن من أمر فإن الاستقامة لها مراتب عالية ، ويمكنها أن تتدرّج إلىٰ مستويات دنيا لتحكم حركة المؤمن بقضية ومبدأ وعقيدة في هذه المستويات جميعها.

إذن فمتىٰ بأيّ مقطع زمني نحتاج هذا المفهوم بزخم أكبر ؟ اننا بحقّ نشعر بالحاجة القوية له حين تتعرّض الأفهام ـ بعد أن استقرت ـ إلىٰ ضغوط فكريّة وشبهات وعمليات تشويش وإيذاء فكري أو ثقافي ، وحين تتعرّض موافقنا إلىٰ افتتان وسط حرارة الامتحان وقساوة الابتلاء ؛ لأنّ فيه السلامة من آثار تلك الضغوط والشبهات قال أمير المؤمنين عليه السلام : « **من لزم الاستقامة لزمته السلامة** » [3].

فالاستقامة هي الدرع الواقي لحركة هذا المؤمن بعقيدته وقضيته ولتصوراته كذلك ، وبدونها يمكن أن يأخذه افتتان الأهواء والاغراءات وحلاوة المال

---

(١) تفسير الميزان ١١ : ٤٨.

(٢) الميزان ١١ : ٤٧.

(٣) غرر الحكم : الحكمة (٨١١٧).

وسلطة الجاه ، لا سيما لو طغىٰ علىٰ هذا الإنسان في حساباته الجانب المادي الصاعق للربح والخسارة ، وأخذ يقيس الأمور علىٰ هوىً مادي صارخ ، فإنه سيفلت ــ لا محالة ــ من حكومة هذه الاستقامة المربّية للروح والمنشّطة للوجدان ، فتراه يلهث وراء سراب هذا الطغيان المادي الجارف ، والتاريخ مليء بكلّ مراحله قديماً ومعاصراً بهذه النماذج التي تنأىٰ بعيداً عن استقامة الطريق وعدالة الصراط.

وتتربّع آية الاستقامة التي ورد فيها النصّ النبوي الشريف : « **شيّبتني سورة هود** »[1] تتربّع هذه الآية المباركة ﴿ **فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ** ﴾[2] سياقاً قرآنياً ونهياً قرآنياً مغلّظاً مباشراً بعدها ﴿ **وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ..** ﴾[3] باعتبارها ظواهر طبيعية لحركة هذا الإنسان حين يفتقد حاكمية هذه الاستقامة علىٰ سلوكه وتصوّراته.

وينبغي أن نعرف أن عقيدتنا لم ولن تسمح بأن يكون لنا الخيار في التلاعب أو تخفيف حاكمية هذا المفهوم علىٰ تصوّراتنا وحركتنا ، وهذا يقتضي أن نكون علىٰ درجة عالية من الحذر والتأهّب إذ تمتحن المواقف والتصوّرات.

الاستقامة لا الانكباب

﴿ **أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾[4].

---

(١) مجمع البيان ٥ : ٣٠٤.

(٢) سورة هود : ١١ / ١١٢.

(٣) سورة هود : ١١ / ١١٣.

(٤) سورة الملك : ٦٧ / ٢٢.

بين الإيمان والكفر مسافة كبيرة ، كالذي بين البصير المهتدي والأعمىٰ الضالّ ، وكالعالم المتيقّن والجاهل الحيران ، في الطرف الأول اليسر والاستقامة والقصد ، وفي الطرف الثاني العسر والتعثّر والضلال.

وقد جاء هذا المثل لبيان حال الكافر الجاهل اللجوج ، والمؤمن المستبصر بالحقّ. فالذي يسقط علىٰ وجهه منكباً عليه لا يرىٰ طريقة ولايميّز عثراته فهو متعثّر السير دائماً ونتائج سيره غير مأمونة ، بينما الذي يمشي مستقيماً بشكل سوي وهو مطمئن إلىٰ استقامة الطريق فإنه لا شكّ سيمضي قدماً دونما تردّد أو خوف.

ان هذا المثل جاء بعد تأكيد الآيات لأصل الربوبية والتحذير من أية مخالفة أو إعراض عن الأوامر الإلهية ، وقد تعرّضت لإثارة المناخ الوجداني في القيمومة الربّانية ، وان كلّ ما في هذا الكون من خلق أو تدبير يعود إليه سبحانه ، فلماذا إذن هذا الاعراض والابتعاد عن طاعة الله القادر العزيز ؟

إن وضوح البراهين وتوارد الأدلّة لا يترك مجالاً للشكّ أو التحفّظ ، فإنّ من يمشي مكبّاً علىٰ وجهه ، ولا يستفيد من هذا الكشف والمعرفة ، فإنه لابدّ أن يقع في ضلالةٍ ، ويتيه في صحرائه المدبة بعيداً عن حياة التشريع الهادي.

إن هذه الحالة قد تجد لها مصاديق أقلّ منها ، لكنها أيضاً تتضمّن خطراً عظيماً يهدّد الفرد والمسيرة معاً ، وعليه فإنّ الإنسان في حركته مطالب بالكشف عن جزئيات سيره ، وأن يستفيد من مفردات الدليل الكوني وخبرات المعرفة الاجتماعية من أن يستهدي الحق وألّا تزل به قدم بعد ثبوتها ، ويجب علىٰ المرء ألّا يحتقر خطر هذه الجزئيات وألّا ينظر إليها بأنها عديمة التأثير ، وبالتالي قد تشكّل هذه الجزئيات خطراً عظيماً لا يتمكّن من مجاوزته والتخلّص منه.

شجاعة التصدّي

عرض القرآن الكريم جوانب كثيرة من القصص النبوي لمبعوثي الرسالة ، فكان منها جانب الاصرار لدىٰ المرسلين ، وهذا الجانب له ما يبرّره ، فالراصد لمستوى تلكم المواجهات يرىٰ أنّ القوة والرجحان المادي في الطرف الثاني الموجه للمرسلين عليهم السلام ، وهذا يستدعي قدراً أكبر من الثبات والاصرار لمواصلة الطريق من قبل المرسلين وأتباعهم ، ومن جهة أُخرىٰ فإنّ فكرةً شجاعةً وصائبةً إذا لم تكن قيادتها ومريدوها علىٰ مستوىٰ التصدّي والشجاعة اللائقة بإدارة الصراع فسيلقي ذلك بظلاله عليها ويلوّنها بألوان الضعف ، وبالتالي فروح المقاومة لم تتمكّن من نفوسهم فتذهب ريحهم أمام أية مواجهة أو امتحان تبتلىٰ فيه المواقف.

إن القوة إنما يتمّ توظيفها في قدرات الفكرة لتنسف كلّ معقَّد ، وتذلَّل كلّ هول في طريق الداعين إلىٰ الله.

إذن الشجاعة ليست عارضاً في المواجهة الفكرية والسياسية ، بل تعد من أُسس التصعيد التبليغي والرسالي والدعوي ، فكثير من الأفكار قضىٰ عليها التردّدُ حين يكون مبعثه الخوف ووهن العزيمة ومن يقف علىٰ فصول هذه المواجهات يجد أوسع المساحات من مواقف الشجاعة والقوة في حركة المرسلين ، والقرآن الكريم يهتف بذلك في مواطن كثيرة نذكر منها :

١ ـ في جواب نوح عليه السلام لقومه ، قال تعالىٰ : ﴿ **قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ**

وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ * وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (١).

٢ ـ في جواب هود عليه السلام لقومه قال تعالىٰ : ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ (٢).

٣ ـ في لقاء موسىٰ النبي عليه السلام بفرعون ، قال تعالىٰ : ﴿ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ * فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣).

٤ ـ في جواب صالح عليه السلام لقومه ، قال تعالىٰ : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ (٤).

٥ ـ مواقف خاتم الانبياء محمّد صلى الله عليه وآله طفحت بالمواجهات الساخنة وبصلابتهِ هو وأتباعه ، وهي كثيره جداً ، فقد بلّغ رسالته في جوّ وثني إرهابي متعسّف ، وصدع بالرسالة ، وأعرض عن المشركين ـ وهو أمر إلهي ـ وأعلنها صريحة ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ (٥).

وقال صلى الله عليه وآله لعمّه وناصره أبي طالب عليه السلام متحدّياً جبروت قريش وطغاتها : « **يا عمّاه لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ـ حتىٰ يظهره الله وأو أهلك فيه ـ ما تركته** » فقال له أبو طالب عليه السلام : اذهب

---

(١) سورة هود : ١١ / ٣٣ ـ ٣٤.

(٢) سورة هود : ١١ / ٥٥.

(٣) سورة الشعراء : ٢٦ / ١٥ ـ ١٦.

(٤) سورة الشعراء : ٢٦ / ١٥٠ ـ ١٥٢.

(٥) سورة الكافرون : ١٠٩ / ١ ـ ٢.

يا ابن أخي ، فقل ما أحببت ، فو الله لا أُسلمك لشيء أبداً.. [1].

والمسلم الحقُّ من جسّد تلك المواقف الرسالية الخالدة لتوظيفها في إثارة مكامن القوّة في نفسه ؛ لتبليغ قضيته وتحديد موقفه من ألوان الصراع والتحدّي وعلى أكثر من صعيد.

الحواريون

الظاهرة والضرورة

الحواريّ : هو الناصر ، وجمعه الحواريون ، وهم صفوة الأنبياء الذين خلصوا وأخلصوا في التصديق بهم ونصرتهم. وعن الإمام الرضا عليه السلام وقد سُئل : لِم سُمي الحواريون بالحواريون ؟ قال : « **أما عند الناس فانهم سمّوا بالحواريين لأنّهم كانوا يخلّصون الثياب من الوسخ ، وأما عندنا فانهم كانوا مخلصين في أنفسهم ومخلّصين لغيرهم من أوساخ الذنوب** » [2].

إنّ بعض أصحاب النبي عيسىٰ عليه السلام اختصّوا بهذا الاسم ، قال تعالىٰ : ﴿ **فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ** ﴾ [3].

والناظر لهذا النص المبارك يقف أمام نماذج حدّدت لنفسها منهجاً في التعامل

---

(١) الكامل في التاريخ / ابن الأثير ٢ : ٥٨٧ . دار الكتب العلمية . ١٤١٥ هـ.

(٢) علل الشرائع : ٨٠ / ١ باب ٧٢.

(٣) سورة آل عمران : ٣ / ٥٢ . ٥٣.

والاعتقاد والاتّباع.

فالقرآن يصفهم بأنهم : مناصرون للنبي مؤمنون بالله ورسالته ، مسلمون « بالمعنىٰ العام للإسلام وهو حقيقة الدين » وانهم شهود يشهدون ويراقبون مسيرة الآخرين ، فهم لم يطلبوا أن يكتبوا مع الشاهدين إلّا بعد أن هيّئوا حقيقة وموضوع هذا « الإشهاد » فهم أُسوة وقدوة لغيرهم. هؤلاء الحواريون لم يكتفوا بالعقيدة إيماناً قلبياً بل اتبعوها بالإيمان العملي « الإيمان بما أُنزل » وبالنصرة وتحمّل كلّ تبعات هذه المناصرة التي جاءت بعد نداء النبي ويأسه من بني إسرائيل « من أنصاري إلىٰ الله ؟ » .

يا ترىٰ هل إنّ هذه الظاهرة الربّانية تقتصر علىٰ خالة ومقطع زمني معين ؟ أم تتعدّاها لما نعيشه اليوم وما عاشه الأنبياء والصالحون ، فلكلّ هؤلاء حواريون وأتباع ومريدون وأنصار ، ومبرّر هذه الظاهرة وهذا الوجود والملاصقة لرائد أية مسيرة كانت هي الحاجة ، حاجة القائد نفسه لهذه النماذج المخلصة ، وحاجة القضية ذاتها لتبليغها وتحقيق أهدافها ، وحاجة الأمة لرجالات كهؤلاء للتأسّي والاقتداء وبيان الحجّة.

فالحواريون حاجة إذن وضرورة لإدامة التحوّل ودفع عملية التغيير علىٰ مختلف الأصعدة السياسية والاجتماعية وغيرها ، شريطة أن تهيء هذه الصفوف ظروف هذا التبوّء وتجهد نفسها لتحقيق النعوت والأوصاف التي أضفاها عليهم كتاب الله ودستوره الخالد ـ كما بيّناه ـ وبغير هذا التهيّؤ فهذه الحاجة والضرورة لم تعد لازمة وقتئذ.

فانظر إلىٰ نور القرآن الخالد كيف وضّح منهج التعامل والاعتقاد والاتباع ، ووفّره لسالكيه في كلّ آنٍ وزمان.

الأمة الوسط

قال تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (١).

العناية الإلهية المباركة بهذه الأمة الإسلامية اقتضت أن تتبوّأ مكانه ، وتلقي عليها لياقةً دونها كلّ اللياقات ، وقد جاءت هذه العناية من أجل بناء أمة قائدة تقاس إليها قدرات وسلوك الآخرين وأفكارهم وعقائدهم ، وقد ذهب بعض المفسرين إلىٰ ان معنى الوسط هو حالة بين حالتي الافراط والتفريط في التصوّر والاعتقاد : فلا رهبنة متخلّفة ولا جنوح مادي عاصف. وفي التنظيم والتنسيق : بحيث تهتمّ هذه الأُمة بالتوجّه والتهذيب وتكفل نظام المجتمع بالتأديب والتشريع. وفي الارتباطات والعلاقات : فتعطي للفرد ما يمكنه من الحركة والنماء والاندفاع في جوّ جماعي يكفل الفرد في تناسق وانسجام. وهكذا ترتّب الوسطية لهذه الأُمة في الزمان والمكان وغيرها. وهذا المعنىٰ للوسطية صحيح بنفسه.

قال العلّامة الطباطبائي : ان الأمة الوسط هي التي تكون بين الناس وبين الرسول ﷺ ، فهي رقيبة وشاهدة علىٰ الناس والأُمم والأقوام وأهل الملل ، ولها النظارة ، والناس تقاس مبادؤهم وأفكارهم وسلوكهم وتصوّراتهم إلىٰ ما تحمله هذه الأُمة الإسلامية الوسط من هذه المعاني ، وفي الوقت نفسه إنّ هذه الأُمة

---

(١) سورة البقرة : ٢ / ١٤٣.

الإسلامية الوسط هي مراقبة ومشهود عليها من قبل الرسول القائد ﷺ والنموذج المثال.

فالوسطية تستلزم الشهادة من هذين الجانبين ، شاهدة علىٰ الناس ، ومشهود عليها من قبل الرسول ﷺ . (١)

وهنا تبرز القيمة الحضارية لهذه الأُمة بأفرادها وفكرها وعقيدتها وسلوكها وهذه المكانة المرسومة لها من قبل الخالق العظيم تمنحها القوّة علىٰ ديمومة العطاء لكلّ الناس ، فالعطاء ينتظر منها ، والعيون عالقة ناظرة إليها ، وهي لا تعطي أو تراقب جزافاً ، بل تحسّ بالمراقبة الدقيقة والشهادة الفاصحة عليها من قبل رسول الإنسانية محمّد ﷺ ، فأُمّةٌ هذا شأنها وهذه مكانتها ، حريّ بها وبأفرادها أن يتّصفوا بسموّ هذه المكانة وعظمة هذا التبوء ليكونوا أهلاً لهذه الشهادة وذلك العطاء السمح.

وحين نقلّب صفحات من هذه الأُمة لم نجدها موفّقة لهذه المكانة المرسومة لها وما أعجب هذا الأمر حين نرىٰ هذه الأُمة تبتلىٰ بمناهج عمل وقواعد تكفير غريبة عنها لا تمت لعقيدتها الإسلامية من قريب أو بعيد سوىٰ التبعية المقيتة والتقليد والانسياق الفوضوي خلف سراب الآخرين.

فالقرآن الكريم بنوره العظيم يثير في المسلمين دافع الأصالة وقدرة التبوء السليم للقيادة والشهادة ، فنحن نمتلك المقياس والأصول التي يعرض الآخرون أنفسهم عليها. ولنستفد جميعاً كأُمةٍ وسطٍ مسلمةٍ لنأخذ دورنا المرسوم في واقع الحياة والعالم.

---

(١) راجع : الميزان في تفسير القرآن / العلّامة الطباطبائي ١ : ٣١٩ ـ ٣٢٢.

الوحدة مبدأ حضاري

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ [1].

الأُمّة الواحدة ذات العقيدة الواحدة والدستور الواحد والربّ الواحد ، كيف يدخلها الاختلاف ، وتأكل وحدتها الأهواء ، ويمزّق شملها التفرّق ؟

لا شكّ أنّها الآفة القاتلة التي يخشاها أيّ تجمّع أو كيان ، وتتمثّل في أبرز اتجاهاتها بابتعاد هذه الأُمة عن منطلقاتها ، وتلوّن أفكارها وعقيدتها بمبتنيات الآخرين ، إضافة إلىٰ دائة الأهواء ودوافع الأمزجة المتباينة في التجمّع الواحد ، إن هذا التصدّع ينسحب أيضاً علىٰ مشاعر وأحاسيس الفرد والجماعة في ذلك الكيان.

والسؤال هنا : هل لهذه الاتجاهات الحقّ في هذا التباين والاختلاف ؟ فالاجتهادات والتنوّع في الأساليب وقوّة الابتكار كلّها صحيحة ما دامت في دائرة التوحّد والدفع في الطريق والمنهج المرسوم المستند إلىٰ الأُصول الواحدة في هذه الأمة. ولكن لا يستطيع أحد أن يجد مبرّراً وتوجيهاً مقبولاً لظواهر الفرقة واصطناع الحواجز وبناء السدود بين أبناء التيار الواحد والدين الواحد والمعتقد الواحد. فالحقّ واحد أبلج ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ [2] ، والقرآن الكريم ينعىٰ علىٰ المتنازعين والمتفرّقين ، ولا يرضىٰ لهم مبرراً ، فالنداءات هذه كثيرة

---

(١) سورة الأنبياء : ٢١ / ٩٢.

(٢) سورة يونس : ١٠ / ٣٢.

متوجّهة إلينا ، وتطلب منا جميعاً أن نوفّر لحظات تأمّل وفرص تفكير لتجاوز هذه المناخات الضيّقة إلىٰ الأصل الكبير والرحاب العظيمة : ﴿ **وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ** ﴾ (١). ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** ﴾ (٢).

وفي سياقات النهي عن هذا التفرّق والتشرذم ، نجد القرآن الكريم يؤكّد علىٰ فطرة الله والتوجّه للدين القويم القيّم لما يدعو إليه من التوحيد والعدل الإلهيين وإخلاص العبادة لله وحده سبحانه.

إنّ ثمة قيماً حضارية تنتظر هذه الأُمة يحثّ عليها القرآن الكريم ويثيرها في وجدان الأمة فيهيّئها لمعترك التنافس والصراع الحموم الذي تقودة قوىٰ الشرّ في هذا العالم لتقويض عزّة الإسلام ، فليحذر الجميع ، ولتتوجّه طاقات الأُمة في بناء الوحدة ـ وهي الأساس ـ قبل التوسّل بأساليب يفهم منها الابتعاد عن هذا الذوبان التوحيدي فهي الأُمة الإسلامية الواحدة قبل التحيّز والتعدّدية المانعين من عطر التوحّد القرآني الكريم.

اعرف الحقّ تعرف أهله

في مسيرة الإنسان وكدحه اللّاحب إذ تعتوره محن وآهات ، وموج من

---

(١) سورة الروم : ٣٠ / ٣١ . ٣٢.

(٢) سورة الأنعام : ٦ / ١٥٩.

الشبهات ، وربّما الحيرة في الاختيار ، فتتموّج في ذاته مختلف التصوّرات حتىٰ المتباينة منها حدّ التضادّ أحياناً ، فهو في معترك الصراح وعنف المواجهة.

هذه المقاطع الحسّاسة من عمر الإنسان لم تُترْك بشكل كافٍ للمماحكات العقلية والفهم الصحيح ، بل تشتدّ فيها أشرعة العاطفة ، فترتبك مواقع القرار لدىٰ هذا الفرد أو ذاك.

فالنور الإلهي لم يتركنا نضرب خبط عشواء لتنسدّ الآفاق وتندرس مداخل الهداية ، فاقرآن الكريم ينعىٰ علىٰ البعض إتباعهم سنّة الأولين ومنهج الآباء دون تدبّر ويلقي باللّائمة علىٰ من عطّل سمعه وبصره وصرف قلبه ، ودعا القرآن إلىٰ التدبّر والانفتاح علىٰ الدليل والحجّة ، وحثّ علىٰ تحرّي النظرة الآفاقية والأنفسية طلباً لسموّ مخاطبية ، كلّ ذلك من أجل تحقيق انعتاقِهِ وتفجير ثورة علىٰ التقليد الأعمىٰ واستغفال الآخرين وإيجاد روح علمية موضوعية بعد أن يطهّرها من لوثة الاسترقاق ولصفة التراب.

وهذه بعض البيانات القرآنية المباركة :

١ ـ ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴾ (١).

٢ . ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (٢).

٣ . ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٣).

---

(١) سورة الكهف : ١٨ / ٥٥.

(٢) سورة السجدة : ٣٢ / ٩.

(٣) سورة البقرة : ٢ / ١١١.

٤ . ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ .. ﴾ [١].

والتاريخ شاهد عظيم سجّل لنا كيف يتبع الناس أسلافهم أو أقرانهم ، وهيّأ لنا الاستقراء الكامل لهذه المشارب ، وقد كان الكثير منها مبنيّاً على تزويقات وأمزجة ، أو خاضعاً لتشويش أو دعاية أطاحت بالبعض ورفعت آخرين دون مواجه صريحة أو تعرّف واعٍ على طبيعة وأُصول هذه الأفكار وتلكم المبادئ والممارسات.

وغريباً أن يذهل صحابيٌّ لرسول الله ﷺ لهيجان رجل مسلم استغفل في جيش معاوية وقد شهر سيفه بوجه جيش أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وهو يصرخ : دعوني أقتل علياً ، فلما سأله الصحابي تذرّع له بحجّةٍ بائسةٍ كان قد التقطها من أفواه الرجال فقال : إن عليّاً لا يصلّي ، ولا بدَّ لي من محاربته !! [٢]

معاذ الله أهكذا تلعب الدعاية في عقول الرجال وتطمس الحقائق حتّى يستحيل ضحاياها دمىً على قطعة الشطرنج ، فلنستفد جميعاً من منهجنا الديني الأصيل « **اعرف الحقّ تعرف أهله** » [٣].

« **اللّهمّ أرني الحقّ حقّاً حتى أتّبعه وأرني الباطل باطلاً حتى أجتنبه..** » [٤].

---

(١) سورة فصّلت : ٤١ / ٥٣.

(٢) راج : شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد ٨ : ٣٦.

(٣) وسائل الشيعة ٢٧ : ١٣٥ / ١٣ : ٣٣٤.

(٤) مستدرك الوسائل ٦ : ٢٦١.

لكي لا تضيع المقاييس

في حالات كثيرة يتعرّض المقياس والضابطة في حياة الإنسان ــ فرداً أو جماعة ــ إلىٰ أجواء ضاغطة إنطلاقاً من طبيعة المفردات التي تلفّ تلك الأجواء وبعدها الروحي والنفسي ، فحالات كهذه كثيرة ، تارة تستغرقها العواطف فلا هذا ولا ذاك.

ومن هذه الحالات نذكر بعضاً منها :

* حالات انصر والهزيمة (الفرح والكآبة).
* حالات الاحباط في العمل.
* حالات احتراف الواجب وتحويله إلىٰ مهنة للتكسّب.
* حالات الطموح والسعي لتحقيق الأمجاد المحدودة.
* حالات الاستئناس لواقع أو ممارسة أو مفردات معينة.

وحالات كثيرة أُخرىٰ ، إنّها الآفة التي تهدّد الإنسان والمجتمع وحركته التاريخية ، ففي ذلك تشتدّ الحاجة إلىٰ مسألتين : هما الإرادة والوعي الفكري والعقائدي ، فهما السلاحان اللّذان بهما تدفع آثار هذه الآفة المهدّدة للقيم والمقاييس.

قال تعالىٰ : ﴿ **أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [1].

---

(١) سورة الملك : ٦٧ / ٢٢.

وقال الرسول : «**المؤمن القويّ خير وأحب إلىٰ الله من المؤمن الضعيف**» [1].

ومن ظلم الإنسان لنفسه والأُمة لنفسها أن يقعوا في وهم تزيين الأعمال ﴿ **أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ** ﴾ [2].

﴿ **الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا** ﴾ [3].

فتستبدل لديهم المقاييس وتختلّ المعادلة.

ومطالعة سريعة لمصائر كثير من الأُمم والأقوام والأشخاص ، نجد أنها لم تتخلّص من شراك هذه التصوّرات الهابطة التي أودت بهم وعاشوا الحيرة وضلال الهدف فغابت عنهم حقيقة الأهداف ، فأخذوا يتخبّطون بين ضغط الحالة التي يعيشونها ـ وقد أشرنا إلىٰ ذكر بعضها ـ وبين افتقادهم إلىٰ الوعي الفكري والعقائدي وفقدان الإرادة علىٰ ذلك.

وهذه المصاديق لم تقتصر علىٰ فكر دون آخر ، ولا نمط حياة دون غيره ، بل هي حالة إنسانية عامّة.

ولكن القرآن الكريم لم يترك أتباعه ومريديه دون أن يضع حلاً وأسباباً للمعالجة فاعتبر الحالات الضاغطة المذكورة حالات استثنائية مرفوضة ، وقد نصّ القرآن الكريم علىٰ هذه المعاني ، ومن جهة أُخرىٰ حثّ القرآن الكريم علىٰ خلق الإرادة ومقاومة الهوىٰ ونبذ التزيين وتسويلات الشيطان ودعا إلىٰ

---

(١) صحيح ابن حبان ١٣ : ٣٠.

(٢) سورة محمّد : ٤٧ / ١٤.

(٣) سورة الكهف : ١٨ / ١٠٤.

التدبّر واستلهام واعٍ متكامل لحركة الإنسان والأشياء والوقائع ، كم دعا إلىٰ التيقّظ ومحاسبة النفس والمجتمع ، وحدّد لكلٍّ صلاحيته في هذا القانون (المحاسبة).

فالقرآن الكريم إذن يطرح رؤية واضحة لخلفية هذه الحالات الضاغطة ، ومن ثمّ يزوّدنا بقواعد الوقاية من الوقوع في جحيم وآلام هذه الحيرة.

المواقف
بين الظن والابتلاء

يرسم القرآن الكريم في سورة الأحزاب صورة من المواجهة التي تعرّض لها المسلمون بمن فيهم جيل القرآن الأول في ظلّ حضور الرسول صلى الله عليه وآله وقيادته.

المسلمون واجهوا حقداً مشتركاً ولما يتجاوزوا السنة الخامسة من الهجرة ، هذه المرّة تبنّت الحركة اليهودية وتجمّع المنافقين والمتضرّرين والموتورين ، تأليب الرأي العام خارج المدينة ضدّ رسول الله صلى الله عليه وآله ودولة الأمل الإلهي في المدينة المنوّرة فتحرّك أقطاب من أولئك اليهود ـ وكان قي مقدّمتهم « سلام النضري » و « حيي بن أخطب » من بني النضير وبني وائل ـ صوب قريش لاستثارتهم ضدّ الرسالة الجديدة ، ولم يكتفوا حتّىٰ جاءوا « غطفان » فدعوهم إلىٰ حرب رسول الله صلى الله عليه وآله ، واستثاروا أطرافاً وأشخاصاً آخرين ، فتجمّع الأحزاب لمواجهة عسكرية تستهدف استئصال هذا النور المنبعث الجديد.

وتقابل الصفّان « صفّ الشرك » بعدده الكبير وعدّته المتطورة نسبياً ، يقابله

« صفّ التوحيد » بإمكاناته المتاحة وعدده القليل ، وتفاصيل هذه المواجهة التي ذكرتها كتب السيرة والتاريخ الحديث قد عرض القرآن الكريم جانباً حيوياً منها دون الخوض في تفاصيلها ، كما هو شأن القرآن في الاقتصار على مواطن العبرة المتجسّدة هنا في موقف الانفعال بالحدث وجوانبه النفسية ؛ قال تعالىٰ : ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ (١).

إن هذا التصوير القرآني الرائع يكشف عن اتجاهات هذه النفوس التي ترزح لابتلاء عظيم يمكن وصفه بالزلزال والاضطراب الشديد المحسوس ، ففي هذا المقطع تتهيأ الأرضية عادة لاطلاق كلّ التصورات المخبأة خلف قضبان النفع والضرر والضرورة الاجتماعية وغيرها ، فحين يتخيل القوم أن مصارعهم تقترب إليهم لتقضي علىٰ أحلامهم ، فهم بفعل هذه القوة الضاغطة يسفرون عن متبنّياتهم وعقائدهم ، وهذا ما حصل لفئة المنافقين ؛ إذ ظنّوا بالله الظنونا ، فقال بعضهم : إن الكفار سيغلبون ويستولون علىٰ المدينة وقال بعضهم : إن الإسلام سينمحق والدين سيضيع وقال آخرون : إن الجاهلية ستعود كما كانت ، وهكذا تصورات هابطة أسفرت عنها فئة المنافقين ، فهم يتمنون ذلك ويميلون إليه ، بينما أطلق المؤمنون كلمات التصديق بوعد الله ورسوله ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ.. ﴾ (٢).

---

(١) سورة الأحزاب : ٣٣ / ١٠ . ١١.

(٢) سورة الأحزاب : ٣٣ / ٢٢.

وتدخل هذه العملية في الطريقة الإلهية لتربية المؤمنين ، فيدخلهم في ابتلاء ويفتنهم في امتحان ليمحّص الذين آمنوا من غيرهم ويميز الخبيث من الطيّب ، والصابرين في الجهاد من المتقاعسين ، وإلّا فإن الله سبحانه قادر علىٰ أن يمنح النصر بإنزال آيات التأييد من غير تمحيص أو ابتلاء ، ولكنّه جلّ وعلا جعل الابتلاء نعمةً وخيراً وصلاحاً لعبده المؤمن.

قال الإمام الباقر عليه السلام : « **إنّ الله عزّوجلّ ليتعاهد المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالهدية..** » [1].

وقال عليه السلام : « **إنّما يبتلىٰ المؤمن في الدُّنيا علىٰ قدر دينه** » [2].

وقال الإمام الصادق عليه السلام : « **إنّ الله إذا أحبّ عبداً غتّه بالبلاء غتّاً** » [3].

بلاء النعمة

﴿ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ** ﴾ [4].

القوم الذين كانوا يعيشون بمكة كفروا بالنعم التي احاطت بذلك الوادي وحولته الىٰ خصوبة مزروعة بعد جدب عقيم ، وصيرته بلد الأمن والاطمئنان

---

(١) الكافي ٢ : ٢٥٥ / ١٧.

(٢) الكافي ٢ : ٢٥٣ / ٩.

(٣) الكافي ٢ : ٢٥٣ / ٦.

(٤) سورة النحل : ١٦ / ١١٢ . ١١٣.

وملجأ الخائفين الذي من دخله كان آمناً من الروع ، وجعلت مكة قبلة يتوجه إليها ومكاناً ذا شأن عظيم ، يقصدها الناس من كلّ مكان ، فمن يعيش هذه النعم المجتمعة في واقعة وحياته ثم يكفر بها فلا ينتظر إلّا العذاب والجزاء إذا ما فرط في شكرها ، لذلك ضرب القرآن الكريم مثلاً لبيان الخطر الذي يلف القوم الجاحدين لنعم الله المحيطة بهم ، فجاء المثل بالقرية المطمئنة التي لا يزعجها الخوف ، والموسع عليها في رزقها ، وحين كفرت ولم تشكر هذه النعم لاقت مصيرها المحتوم ضمن سنن الله في العقاب والثواب. والملاحظ في هذا المثل أن العذاب جاء مقابلاً للنعم ، فالجوع عاقبة للرزق الرغيد ، والخوف عاقبة للاطمئنان ، وذلك بعد الكفر بهما.

وفي هذا المثل القرآني استخدم القرآن الكريم حالة مشددة من العذاب ، فلم يكن الخوف والجوع لوحدهما جزاءً ولكنهما رتّبا من طريقين : احدهما الالباس ، وثانيهما الاذاقة ، وذلك زيادة في اثارة الاحاسيس والخشية من وقوع مثل هذا الجوع والخوف.

وقد يقال : كيف تكون الاذاقة مع الالباس ؟ والجواب : انه يصح ان يقال ذاق فلان الجوع والضر ، أو اذاقه ذلك ، وكذلك الالباس كقوله : ألبس الله الكافرين ثوب الجوع والخوف ، ليثير الالباس حالة شديدة من الجوع والخوف لما يغشاه ويحيط به فكأنك تقول : أذاقهم ما غشيهم من الجوع والخوف.

ان هذا العرض القرآني الكريم من أجل ترسيخ الحالة التي يجب ان نكون عليها امام النعم ووجوب شكرها ، والحذر من الكفر بنعم الله سبحانه ، وان هذه الحالة قد تكتسب اهميتها الاجتماعية من جانب حدوثها وحصولها المتكرر في الوسط الفردي والمجتمع كذلك ، وعليه فينبغي مراقبة النفس وكيفية تحركها

وسط النعم الموفورة عليها ، وينبغي التنبه الىٰ ان شكر النعمة لا يأتي عبر شبكة من حروف الشكر والثناء ، ولكن الشكر هو العمل ﴿ **اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا** ﴾ [1] ، وأقلّ العمل هو عدم المعصية ، قال أمير المؤمنين عليه السلام : « **أقلّ ما يلزمكم الله ألّا تستعينوا بنعمه علىٰ معاصيه** » [2].

من اللجاجة الىٰ التشدّد

وقعت لبني اسرائيل حادثة قتل ، فجهلوا القاتل وأخذوا يتراشقون التهم فيما بينهم ، فكل جماعة أو قبيلة ترمي الأخرىٰ بتهمة القتل ، فتهدّد النظام الاجتماعي بينهم ، وانتشر الرعب والخوف في أواسطهم ، وحينئذٍ لم يجدوا حلاً غير اللجوء إلىٰ شاهد الأمة ونبيها آنذالك كليم الله موسىٰ عليه السلام ، وهنا يبدأ الاختبار وتظهر المواقف ، فأمرهم عليه السلام أن يذبحوا بقرة أيّة بقرة دون أن يشترط عليهم واحدة منها ، وإذا بهم يواجهونه بصلف ﴿ **قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ** ﴾ [3] فقد تجرؤوا علىٰ رسول الله السماء واتهموه بالسفه وعدم الجدية والمزاح !

وبعد هذا المنطق الفجّ أخذوا يتساءلون ويثيرون جملةً من الاستفهامات عن أوصاف هذه البقرة حتىٰ انتهت القصة باختيار بقرة لدىٰ فتىٰ من بني إسرائيل دفعوا عوضها « ذهباً » وهو نوع تأديب للذين حكمتهم رؤوس الأموال والقيم

---

(١) سورة سبأ : ٣٤ / ١٣.

(٢) نهج البلاغة : الحكمة (٣٣٠).

(٣) سورة البقرة : ٢ / ٦٧.

المادية ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [1].

لقد جسّد هذا المقطع القرآني جانباً من لجاجة وتعنت بني اسرائيل وتلكؤهم في الاستجابة ، واصطناع المعاذير بوجه الخطاب الرسالي وأوامر الغيب الإلٰهي ، وقد شهد هذا المجتمع آنذاك إنزال النِعَم والتأييدات الالهية ، لكنه « للأسف » سرعان ما نكث العهود ونقض المواثيق وانطلت عليه لعبة « السامري » وأمثالها حتىٰ استحال إلىٰ مادة للمكر والخداع.

فهذه النعم اذن لم ترتفع بهم الىٰ مستوىٰ القضية التوحيدية ما داموا يعيشون منطلقات تغاير مبادئ هذا النداء الالهي ، فقد طغت عليهم مقاييس الربح والخسارة ومديات النفع والضرر ، وبالتالي ظهرت في تعاملهم مع هذا النور التوحيدي الجديد أمراض الاستعصاء والنفرة بدلاً من الطاعة والامتثال ، وبهذا التشدد وعدم الطاعة شدّد الله عليهم ، فألجأهم الىٰ بقرة وحيدة في أوصافها ونعوتها ، ولولا عنادهم ولجاجتهم هذه لاستطاعوا اختيار أية بقرة شاؤوا.

عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال : « إن رجلاً من بني إسرائيل قتل قرابةً له ، ثمّ أخذه فطرحه علىٰ طريق أفضل سبط من أسباط بني إسرائيل ، ثمّ جاء يطلب بدمه فقالوا الموسىٰ عليه السلام : إن سبط آل فلان قتل فلاناً ، فأخبرنا من قتله ؟ قال : ائتوني ببقرة ﴿ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ ولو عمدوا إلىٰ بقرة أجزأتهم ، ولكن شدّدوا فشدّد الله عليهم

---

(١) سورة البقرة : ٢ / ٧١.

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ [1] لا صغيرة ولا كبيرة ، ولو أنهم عمدوا إلىٰ بقرةٍ لأجزأتهم ، ولكن شدّدوا فشدّد الله عليهم ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ [2] ولو أنهم عمدوا إلىٰ بقرة لأجزأتهم ، ولكن شدّدوا فشدّد الله عليهم ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ [3] فطلبوها ، فوجدوها عند فتىً من بني إسرائيل ، فقال : لا أبيعها إلّا بملء مَسْكها [4] ذهباً ، .... فاشتروها » [5].

وهذه الحالة من التلكؤ وعدم الامتثال من قبل الأمة ترهِّل المسيرة وتحرج قادتها لينشغلوا في إرضائهم ومداراتهم بدلاً من التفرّغ للقضايا المصيرية ومنعطفات التحرك الآساسية ، فقد تخسر الأُمة بذلك فرصها التي انتظرتها طويلاً وتضيع آمالها التي سهرت من أجلها كثيراً.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [6].

---

(١) سورة البقرة : ٢ / ٦٨.

(٢) سورة البقرة : ٢ / ٦٩.

(٣) سورة البقرة : ٢ / ٧٠ . ٧١.

(٤) أي جلدها.

(٥) تفسير العياشي ١ : ١٣٧ / ١٦١.

(٦) سورة النساء : ٤ / ٥٩.

الأنداد الضالون

الأنـداد : جمـع نـدّ ، وهـو الضـدّ والشـريك ، فقـد يتّخـذ الإنسـان في حياتـه وعقيدتـه مثـالاً ونموذجـاً ربمـا هـذا المثـال حجـراً أو نباتـاً أو ملكـاً ، وقـد يكـون إنسـاناً مثلـه أو دينـاراً ! وهكـذا ، وهـذا الاتّخـاذ يتحـوّل في المشـاعر والأحاسـيس حبّـاً وودّاً ؛ قـال تعـالىٰ : ﴿ **وَمِـنَ النَّـاسِ مَـن يَتَّخِـذُ مِـن دُونِ اللَّـهِ أَنـدَادًا يُحِبُّـونَهُمْ كَحُـبِّ اللَّـهِ** ﴾ [1] فهـم يضـمرون أو ينتزعـون حـب الله مـن قلـوبهم ليبـدلوها حبّـاً آخـر ، إذ لا يجتمـع حبـان متناقضـان في قلـب واحـد ، قـال تعـالىٰ : ﴿ **مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ** ﴾ [2] فإذا دخل حبّ في قلب الإنسان لابـدَّ أن يخـرج الحـبّ الأول أو علـىٰ أعلـىٰ التقـادير يبقـىٰ في ضـفاف هـذا الحـبّ الجديد بعيداً عن تأثيراته الصميمية.

ففـي عصـرنا اليـوم لم يعـد للأصـنام الحجريـة أو الجامـدة مكـان ليعـبّر لهـا بـالولاء والحـبّ وتقـديم الـودّ ، ولكـن للأصـنام البشـرية والفكريـة والماديـة وسـائر القـوىٰ المـؤثّرة في حركـة الإنسـان وتطـور المجتمـع مجـالاً واسـعاً للاسـترقاق مـا لم تسـتحكم عقيدة التوحيد في قلوب الناس وعقائدهم.

ولا يعـني هـذا أننـا نـرفض حـبّ بعضـنا للـبعض أو حبّنـا للقائـد والقـيم والفكـر ، ولكـن حـين يخـرج هـذا الحـب بطريقـة وقناعـة معينتـين يمكـن أن يحكـم عليهـا بالنديّـة والإشـراك والضـلال. يقـول السـيد الطباطبـائي ﷺ : إنّ مـن أحـبّ شـيئاً مـن

---

(١) سورة البقرة : ٢ / ١٦٥.

(٢) سورة الأحزاب : ٣٣ / ٤.

دون الله ابتغاء قوة فيه فأتبعه في تسببه الىٰ حاجة ينالها منه ، أو اتبعه بإطاعته في شيء لم يأمرالله به ، فقد اتخذ من دون الله أنداداً [1].

فكثيراً ما يعيش الإنسان قدسية الأُطر الفكرية أو التنفيذية أو السياسية وغيرها فتأخذه جاذبية العمل وأُنسه وأُلفته لهذه الحالة بعيداً عن الواقع والتصوّر الكوني للأشياء ، وليس بعيداً عنا ما جرىٰ ويجري في الوسط الإسلامي من موالاة وطاعة عمياء لأفكار دخيلة وقيادات غريبة عن واقع الأُمة الإسلامية بكل أُطرها السياسية المستوردة.

عن الإمام الباقر عليه السلام في قوله تعالىٰ : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ** ﴾ يقول عليه السلام : « **هم والله أئمة الظلمة وأشياعهم** » [2].

وينعىٰ القرآن الكريم عليهم منهجهم هذا بأنهم غائبون عن حقيقة مالكية القوة المطلقة ، وبالتالي فهم لم يدركوا ما ينتظرهم من عذاب ، فيريهم الله سبحانه أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ، قال تعالىٰ : ﴿ **وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ * إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ** ﴾ [3].

---

(١) تفسير الميزان : ١ / ٤٠١.

(٢) تفسير العيّاشي ١ : ١٧٤ / ٢٤٨.

(٣) سورة البقرة : ٢ / ١٦٥ ـ ١٦٧.

الغرور القاتل

الغـرور : يعـود هـذا المصـدر إلىٰ جـذر لغـوي لـه عـدة معـان نقتطـف هنـا المعـنىٰ الـذي يسـتخدمه القـرآن الكـريم في الآيـات الـتي تعـرض فيهـا لهـذه المفـردة القرآنيـة ، فـالغرور ويقـارب الغفلـة لغـة ، واذا تتبعـت الآيـات المباركـة تجـد ان معـنىٰ الغفلـة هـو الركن الاساسي في تفسير مفردة الغرور.

قـال تعـالىٰ : ﴿ **يَـا أَيُّهَـا النَّـاسُ إِنَّ وَعْـدَ اللَّـهِ حَـقٌّ فَـلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَـاةُ الـدُّنْيَا وَلَا يَغُـرَّنَّكُم بِاللَّـهِ الْغَـرُورُ** ﴾ [1] وفي الآيـة تصـريح بـالنهي عـن الاغـترار بالـدنيا والاستغال بزينتها والاستغراق بطلبها والاعراض عن الحق والغفلة عنه.

وهكـذا لـو تتبعـت هـذه الآيـات تجـد أنهـا تسـتبطن الغفلـة ، وانهـا وراء ورطـة المغـرورين بـالله سـبحانه وأسـس الإيمـان الأخـرىٰ ، ويفسـر علمـاءُ الأخـلاق الغـرورَ بسـكون الـنفس الىٰ مـا يوافـق الهـوىٰ ويميـل إليـه الطبـع عـن شـبهة وخدعـة مـن الشـيطان. والغـرور نـوع مـن الجهـل ، ومنشـأ هـذا الغـرور هـو الجهـل بـالله وصـفاته ، فان من عرفه سبحانه لا يأمن من مكره ويغترّ به.

وقـد قسـم علمـاء الاخـلاق المغـرورين الىٰ عـدة اصـناف ؛ فمـنهم عصـاة المـؤمنين ، وغـرور أهـل العلـم وارباب العبـادة والعمـل وارباب الأمـوال و ... الخ. قـال الصـادق عليه السلام : « **المغرور في الدنيا مسكين وفي الآخرة مغبون لأنه باع الأفضل**

---

(١) سورة فاطر : ٣٥ / ٥.

بالأدنىٰ » [1].

والغرور مرض يصيب النفس الإنسانية فيشلها عن الفاعلية ويمنعها من رؤية فضل الآخرين ، ويبقىٰ المغرور منتفخاً في دائرة أوهامه ، واذا ما استحكم هذا المرض من النفس فلا يستطيع الإنسان وقتئذ أن يحفظ حتىٰ المقدسات ، فتأخذه المكابرة علىٰ كلّ شيء سوىٰ نفسه ، وهذا الغرور كما يصفه علماء الأخلاق يصيب الإنسان مهما كانت هويته واعتقاده ، فلا يسلم منه احد لا سيما في اجواء تحقيق الانجازات والمشاريع والانتصارات ، وقد اطلق البعض وصفاً لهؤلاء المغرورين المتكبرين كمن ينظر الىٰ الناس من مرتفع عالٍ فيراهم صغاراً ونسي انهم يرونه صغيراً أيضاً لذا تتمكن الغفلة وتستحكم في رؤية هذا الإنسان المغرور.

وبناء علىٰ ذلك يجب علىٰ هذا الإنسان أن يعرض نفسه دائماً علىٰ دائرة اتهام النفس ومحاسبتها حتىٰ لا تنأىٰ به بعيداً عن صواب الطريق. ويأتي هذا في سياق آية النهي عن الغرور : ﴿ **أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ** ﴾ [2] لتذكّر أنّ هذا الإنسان يعمل بمعادلة مقلوبة ؛ منكوس فهمه مغلوب علىٰ عقله ، يرىٰ عمله السيء حسناً ، فهو لا يستوي والمؤمن الذي يعمل الصالحات ويرىٰ السيئة سيئة.

وما أفدح أمر الإنسان الذي يبرّر لعمله السيء ويستمريء مرارة هذه السيئات وقذارتها دونما وعي لحقائق الأمور !

---

(١) مصباح الشريعة / المنسوب إلىٰ الإمام الصادق : ١٤٢.

(٢) سورة فاطر : ٣٥ / ٨.

الدنيا متاع الغرور

قال تعالىٰ : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ (١).

اللعب : ضد الجدّ ، وهو عمل بقصد اللذة أو التنزّه ، أو من غير قصد صحيح ، وقيل : هو تعب من غير فائدة. **واللهو** : ما يشغل الإنسان عما يهمّه. **والزينة** : تحسين القبيح. **والتفاخر** : المباهاة والتمدّح بالخصال.

جُعِلَتْ الحياة الدنيا من أجل البناء وتعميق العبودية الخالصة لله ، ولم تُخْلَق عبثاً ، وإنّما لحكمه ومشيئة إلهية ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴾ (٢) ، ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ﴾ (٣) وفي الميدان الحياتي يشق الإنسان طريقة وهو خليفة الله المجعول من قبله سبحانه ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (٤).

ومن أجل تقبيح حبّ الدنيا في نفسه ، وبيان النتائج المرعبة للمغمورين فيها ذكر القرآن الكريم في هذا المقطع بعض الخصال مثل : « اللعب واللهو

---

(١) سورة الحديد : ٥٧ / ٢٠.

(٢) سورة المؤمنين : ٢٣ / ١١٥.

(٣) سورة ص : ٣٨ / ٢٧.

(٤) سورة البقرة : ٢ / ٣٠.

والزينة ، والتفاخر ، والتكاثر » وهذه الخصال تضفي على دنيا الناس حركة ، ولكن أيّة حركة هذه ؟ إنّها الانشغال والانقطاع للدنيا ، فتخدع مريديها وتشغلهم ، وتسرق وقتهم ، وتأسرهم في أعمال تبعدهم عن الصواب وسلامة المنقلب ، والملاحظ في هذه الصفات أنّها تستغرق حياة الناس ، فقد يبدأ الإنسان فيها لاعباً وينتهي ميّالاً للتكاثر في الأموال والأولاد ، مسروراً بأسباب اللهو والزينة والتفاخر.

ومن أجل بيان هذه الحقيقة والخطر الكامن فيها ضرب القرآن الكريم مثلاً حياتياً يمرّ به الناس كلّهم ، ويرونه بأعينهم ، فالحياة الدنيا كالمطر النازل الذي يثير الأرض ويهيجها ، فيعجب نباته الزارعين ، وبعد ذلك يصفر وتزول نضارته ، ثم يصير هشيماً يابساً متكسّراً تذروه الرياح ، فلا يثبت أمام الناظرين ، ويتلاشى ذلك الوجود بسرعة فلا ينفعهم اعجابهم ، قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : « **إن أقبلت غرّت ، وإن أدبرت ضرّت** »[1].

إنّ ضرب هذا المثل يثير في النفوس خطر هذه الدنيا وحقارتها وسرعة زوالها ، ثم تذكر الآية أن هناك عذاباً شديداً ينتظر أتباع الدنيا ومريديها ومحبّيها ، بينما المغفرة والرضوان لمن يجعل الدنيا طريقاً للعمل الصالح ويعيش فيها عبداً مطيعاً لله ولا يتأثّر بخصالها الباطلة ، ثم تذكر الآية أن الدنيا متاع لا يدوم ، وهو مبني على غرور لا يستند إلى حقيقة عملية ، وهذا نوع انسجام بين بداية الآية وخاتمتها ، وعلى المرء ان يستحضر على الدوام هذا المعنى الذي يكشف عن حقيقة الدنيا من خلال تعامله مع عقيدته ونفسه والمجتمع ، من أجل أن تكون ضابطاً واعياً لكل مواقفه وممارساته العملية.

---

(١) بحار الأنوار ٧٨ : ٢٣ / ٨٨.

الدنيا هشيم يحترق

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ (١).

جاء هذا المثل بعد مثل الجنتين وبين أن الإنسان قد يُخدَع بالحياة الدنيا فيتصوّرها دائمة له يعيش في كنفها وتدفع عنه نذر الموت ، إنّ هذه المشاعر والأحاسيس إنّما تتولّد جراء الغفلة وعدم الالتفات الىٰ المنقلب ، وحين تطحنه الدنيا بدولابها الكبير يستحيل فاقد الإرادة مستسلماً لم يتمكّن من الرفض ولم يحاول أن يتجاوزها ولو مرّة واحدة ، وقد تحيا الدنيا في نفس محبيها عشقاً يغمر نفوسهم يأخذ بعقولهم بعيداً عن حسابات المنطق الإلهي القويم ، وهكذا نواجه في حياتنا الكثير من الناس يعيشون فيها لعمارتها ، وينقطع في ذهنهم شريط الأحداث ، فلا يرون فيه إلّا دنياهم الغرور ، لذلك لا يروق لعاشقيها سماع موعظة أو بيان في أخراهم ، وإذا سمعوها لم يعوا مقالةً ولم يفقهوا خطاباً ، حتىٰ يستسلموا إلىٰ العمىٰ والضلال ، ويشربوا كأسها إلىٰ الثمالة ، قال الإمام الكاظم عليه السلام : « **مثل الدنيا مثل ماء البحر كلّما شرب منه العطشان ازداد عطشاً حتىٰ يقتله** » (٢).

ولقد جاء هذا المثل لبيان قصر الحياة الدنيا وسرعة انقلابها إلىٰ الفناء

---

(١) سورة الكهف : ١٨ / ٤٥.

(٢) تحف العقول : ٣٩٦.

فالذي يشاهد النبات وهو يختلط بماء السماء ، يراه مخضرّاً ينمو ويتحرّك ويزهو ، فيأخذ بنفسه ويتمكّن من رغبته ، ثمّ لا يدوم له ذلك فيصيبه اليبس ويتحوّل إلىٰ هشيم متكسّر ومتفتّت تطيره الرياح فيزول ويفنىٰ ، وإنّ الله مقتدر لا يمنعه مانع من ذلك ، هذا هو شأن الدنيا تزول وتفنىٰ بسرعة بعد زهوها وخيلائها.

وبعد ذلك ذكر القرآن الكريم مباشرة أنّ المال والبنين هما زينة الحياة الدنيا ، وليس لهما وجود حقيقي ، أو بقاء خالد ، ولكن النفس تلتذّ بالمال والبنين وآثارهما ، لما يتركانه من لذّة الجمال والقوّة التي يتزيّن بها أصحابها ، بينما يؤكّد القرآن الكريم علىٰ القيمة الحقيقية والأثر الخالد الذي تتركه الباقيات الصالحات من الأعمال والأقوال والطاعات ، قال رسول الله : « **الدنيا ساعة ، فاجعلوها طاعة** » [1].

فلا بقاء إلّا للعمل الصالح ، وهذه الدنيا فانية زائلة بزينتها من الأموال والأولاد لذلك ينبغي الالتفات إلىٰ ما يبقىٰ ويخلد وينفع آخرة الإنسان ، قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : « **ألستم في مساكن من كان قبلكم ، أطول أعماراً ، وأبقىٰ آثاراً ، وأبعد آمالاً ، وأعد عديداً ، وأكثف جنوداً ، تَعَبّدوا للدنيا أيّ تعبّد ، وآثروها أيّ إيثار ، ثم ظعنوا عنها بغير زاد مبلغ ، ولا ظهر قاطع** » . ثمّ قال : « **فقد رأيتم تنكّرها لمن دان لها وآثرها وأخلد إليها حتىٰ ظعنوا عنها لفراق الأبد** » [2].

---

(١) بحار الأنوار ٧٧ : ١٦٤ / ٢.

(٢) نهج البلاغة / تحقيق محمد عبده : ٢١٩ الخطبة (١١١).

الفرد المخدوع

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١).

الدنيا الغَرُور المهلكة طلّابها القاتلة محبّيها ، تتزيّن لضحاياها من البشر لتلقي بهم في شراكها القاتلة ، فما أشدّ غفلة الإنسان عن مصيره الذي ينتظره ! وبينما هو مشغول بها فإذا به ميت وكأنه لم يكن شيئاً مذكوراً.

إنّ حبّ الدنيا والانشغال بها كثيراً قتل الماضين ، فمثلها ـ كما يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام ـ : « **كمثل الحيّة ليّن مسّها والسم الناقع في جوفها يهوي إليها الغر الجاهل ، ويحذرها اللبّ العاقل** » (٢) ولكن قلّ مَن يعتبر ، تهلكهم واحداً بعد واحد ، ولا يكونون منها على حذر ، ونجد من عمّرها وكدّ وسعى فيها ، يموت عليها حسرة حين يتكشّف زيفها ويضعف بدنه عن تناول لذائذها ، فهي كالقنطرة للعبور لا للتعمير والزينة.

لقد طالعتنا الآية الكريمة في سورة يونس بتشبيه وتجسيد لحقيقة الدنيا من خلال مشاهدات الإنسان ومحسوساته الحياتية المتكرّرة ، فالماء النازل على

---

(١) سورة يونس : ١٠ / ٢٤.

(٢) نهج البلاغة : الحكمة (١١٩).

الأرض التي فيها نبات لم يترعرع ويشتدّ بعد ، يجعلها مكسوّة ومزيّنة بألوان هذه الزروع وتصبح الأرض كالعروس المهيأة لزفاف ينتظرها ، فتلقي بشراكها من يغترّ بزخرفها الزائل ، ويتعلّق هذا الإنسان بها ، فتدخل ذهنه الاحتمالات والحسابات المادية ، فيعتقد أنه قادر علىٰ جمع ما أنبتته الأرض والاستفادة ممّا فيها ، وبينما هو في فرحة الآمال ونشوة التعلّق والغرور بزخرف الدنيا وزينتها ، تضرب هذا الزرع آفة عظيمة تحيله الىٰ حصيد مقطوع ومقلوع لا يغني شيئاً ، فتنهدم تلك الآمال وتذهب نفسه حسرات علىٰ حبّه الفاني لها ، وكدّه المرير من أجل بنائها.

هذه الصور المجسّدة تجعل من الحقيقة المعنوية للحياة الدنيا صورة مادية شاخصة بمصيرها المرعب الفاني في ذهن محبّيها تحذيراً لهم ؛ ولتجنيبهم مصير من مضىٰ من المغرورين بها الهالكين فيها. قال ﷺ : « **من أصبح والدنيا أكبر همّه فليس من الله في شيء ، وألزم الله قبله أربع خصال : همّاً لا ينقطع عنه أبداً ، وشغلاً لا ينفرج منه أبداً ، وفقراً لا يبلغ غناه أبداً ، وأملاً لا يبلغ منتهاه أبداً** » [1].

لا حوار مع اللّاغين

إنّ ظاهرة سيّئة كاللغو ــ في مواجهة حركة الرسالات ــ إنما يشتدّ ظهورها حين يترك العمل الصالح أثره علىٰ واقع الحياة ، فترىٰ طائفة في الأمة تكرّس همّها لنشر اللغو بوجه هذا الصعود الإيماني الفاعل مستعينة وللأسف بأساليب ملتوية منحرفة غرضها الضوضاء والتشويش والحيلولة دون حركة هذا

---

(١) تنبيه الخواطر / ورام ١ : ١٣٠.

الصعود الذي يفسد عليها أمانيها وأحلامها.

وقد يكتسب اللغو أحياناً قناعة لدىٰ أفراد هذه الطائفة ويحسبونه صنعاً حسناً ، فيتقنون إخراجه ويلتمسون له (فَبْرَكَةً) وفنّاً ، وفي هذه الحالة يستحيل عملاً أخطر من اللغو نفسه ، ولهذه الحالات أحكمها.

واللغو كما تعرضه الآيات المباركة في سورة (المؤمنون) و (الفرقان) و (القصص) هو ما لا فائدة فيه من قول أو فعل ، وهو قبيح ، وقيل : إنه الباطل والكذب والحلف. كما عن ابن عباس والسدي والكلبي علىٰ الترتيب ، ويرىٰ الشيخ الطوسي أيضاً انه الهذر من الكلام [1]. وحين يصف القرآن الكريم أهل الجنّة ، فانه ينفي عنهم هذه الصفة التي يقرنها مرّة بالتأثّم وأُخرىٰ بتكذيب بعضهم بعضاً ﴿ **لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا** ﴾ [2] ﴿ **لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا** ﴾ [3] وهذه المعاني تنطلق من قاعدة الطهر الذي يلفّ المؤمنين في الآخرة ؛ لأن كلامهم حينئذ مفيد ، وقوله تعالىٰ : ﴿ **لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً** ﴾ [4] ؛ لأن سماع ما لا فائدة فيه يكون ثقلاً علىٰ النفس وأهل الجنة مصونون عن ذلك.

إنّ اللغو يفسد الحسّ واللسان فالحديث الفارغ يقتل الوقت دون أن يضيف الىٰ القلب أو العقل جديداً ، أو معرفة مفيدة.

وأمام هذا الحشد السيء من القبح المرفوض من لغو الفعل والكلام ، يهتف بالمؤمنين كتاب الله العزيز قيأمرهم بالإعراض عن اللغو ومجالسه وأهله ، لأن

---

(١) التبيان / الشيخ الطوسي ٧ : ١٣٨.

(٢) سورة الواقعة : ٥٦ / ٢٥.

(٣) سورة النبأ : ٧٨ / ٣٥.

(٤) سورة الغاشية : ٨٨ / ١١.

المؤمنين من الكرام لا يرضون به ، فهم يجلّون عن الاختلاط بأهله والدخول فيه ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ [1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « **أعظم الناس قدراً من ترك ما لا يعنيه** » [2].

وتعال معي أخي القارئ لنتلو قوله تعالىٰ في وصف المعرضين عن اللغو : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ [3].

فيصفهم الرحمٰن بذلك ، فهم يدفعون بالكلام الجميل اللغو من كلام الكفار ويعرضون عنه ولم يخاصموا فيه ، وقالوا لهؤلاءِ اللاّغين : لنا جزاء أعمالنا ولكم جزاء أعمالكم ، ويسلّمون عليهم ، ويقولون لهم قولاً يجعلهم في منأىٰ عن غائلة اللغو ، وهذا من أحسن صور الأدب القرآني..

فالجدل مع أهل اللغو لغو أيضاً ، وهكذا يعرض القرآن الكريم للمؤمنين صورة تفيض بالترفّع عن اللغو كما تفيض بالسماحة والودّ ؛ إذ النفوس المؤمنة مشغولة بتكاليف الإيمان ، مترفّعة بأشواقه ومتطهّرة بنوره.

المودّة المذبوحة

لم يكن أهل البيت عليهم السلام ظاهرة عادية أو وجوداً طارئاً ، فالمتتبّع لنصوص القرآن والسنّة يمكنه أن يشير بوضوح إلىٰ عظم مكانتهم وعلو شأنهم في الأدوار

---

(١) سورة الفرقان : ٢٥ / ٧٢.

(٢) أمالي الصدوق : ٧٣ / ٤١.

(٣) سورة القصص : ٢٨ / ٥٥.

التي أدّوها.

فهم أعدال القرآن ، وسفن النجاة وهم المطهّرون عن كلّ رجس ، وقد تجسّدت فيهم إمامة المسلمين بحقّ ، وهو الدور المكمّل لقيادة النبي صلى الله عليه وآله لأمّته والعالم.

ولنقتطف لبيان جانب من عظمة هذا الوجود المبارك نصاً من القرآن الكريم في مودّتهم ووجوب محبّتهم ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ **قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ** ﴾ (١).

فقد ذكر أغلب المفسّرين من الخاصة والعامة علىٰ أن القربىٰ هم أهل البيت عليهم السلام « **علي وفاطمة والحسن والحسين** عليهم السلام » (٢).

والمودّة في الآية هي المحبّة ، أي قل يا محمد لا أسألكم أجراً علىٰ أدائي لكم عن الرسالة وما بعثني الله به من المصالح إلّا المودّة في القربىٰ.

والمروي عن علي بن الحسين والباقر والصادق عليهم السلام وسعيد بن جبير وعمرو بن شعيب وجماعة : « **أن تودّوا قرابتي وعترتي وتحفظوني فيهم** » (٣).

وعن ابن عباس : لما نزلت هذه الآية قالوا : يا رسول الله صلى الله عليه وآله من هؤلاء الذين أمرنا الله بمودّتهم ؟ قال : « **علي وفاطمة وولداهما** » (٤).

---

(١) سورة الشورىٰ : ٤٢ / ٢٣.

(٢) الدرّ المنثور ٦ : ٧ ، تفسير الرازي ٢٧ : ١٦٦ ، الكشّاف ٤ : ٢١٩ ، شواهد التنزيل ٢ : ١٣٠ ، مجمع البيان ٩ : ٤٣.

(٣) مجمع البيان ٩ : ٤٤.

(٤) الصواعق المحرقة : ١٧٠ ، فضائل الصحابة / أحمد بن حنبل ٢ : ٦٦٩ / ١١٤١ ، مجمع الزوائد ١٦٨ : ٩ ، ذخائر العقبىٰ : ٢٥.

وقال النبي ﷺ : « **لو أن عبداً عبد الله بين الصفا والمروة ألف عام حتىٰ يصير كالشنّ البالي ثم لم يدرك محبّتنا ، أكبّه الله علىٰ منخريه في النار** » ثمّ تلا آية المودّة [1].

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام : « **لا يحفظ مودّتنا إلّا كلّ مؤمن** » [2].

وقال النبي ﷺ : « **من مات علىٰ حب آل محمد مات شهيداً ومغفوراً له وتائباً ، ومؤمناً مستكمل الإيمان ، وبشّره ملك الموت بالجنّة ثمّ منكر ونكير ، ويزفّ إلىٰ الجنّة كما تُزَفُ العروس إلىٰ بيت زوجها ، وفي قبره يُفتح له بابان إلىٰ الجنّة ، وجعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة ، ألا ومن مات علىٰ حب آل محمّد مات علىٰ السنّة والجماعة ، ومن مات علىٰ بغض آل محمّد جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه : آيس من رحمة الله ، وقد مات كافراً ولم يشمّ رائحة الجنّة** » [3].

ثم يعلّق الفخر الرازي فيقول : « لا شكّ ان فاطمة وعليّاً والحسن والحسين كان التعلّق بينهم وبين رسول الله ﷺ أشدّ التعلّقات ، وهذا كالمعلوم بالنقل المتواتر ، فوجب أن يكونوا هم الآل » [4].

والاستثناء (إلّا) في الآية سواء أكان منقطعاً أم متّصلاً ، فإن عظمة المودّة فيهم عليهم السلام تبقىٰ شاخصة وواجبة بأمر إلهي.

---

(١) مجمع البيان ٩ : ٤٣ ، شواهد التنزيل ٢ : ١٤٠ / ١٣٧ ، ترجمة الإمام علي عليه السلام من تاريخ دمشق ١ : ١٤٨ / ١٨٢ و١٨٣ ، كفاية الطالب : ٣١٧.

(٢) مجمع البيان ٩ : ٤٣.

(٣) الكشّاف ٤ : ٢٢٠ . ٢٢١ ، تفسير الرازي ٢٧ : ١٦٥.

(٤) تفسير الرازي ٢٧ : ١٦٦.

فيا ترىٰ وجود مبارك هذا شأنه وعظمته بنصّ إلهي ، كيف تعرّض لإيذاء من الأمة نفسها ، ولم يكن آنذاك فارق زمني كبير عن عصر النزول ، وأن تتجرّأ الأقزام من قريش علىٰ أن تغضب الزهراء عليها السلام وتبعد الحق عن أهله ، والأجلاف من بني أُميّة لتغتال الثمرة الاولىٰ « الإمام الحسن » لشجرة المصطفىٰ صلى الله عليه وآله وتأتي علىٰ الثمرة الأُخرىٰ لتحزّ رأس الحسين عليه السلام في عرصات الغربة . صحراء كربلاء . قد أمرنا الله سبحانه بمودّتهم ؟!

ما أفدح المنقلب ! وهل يدور الزمن دورة كهذه مرّة أخرىٰ ؟ ولا وحول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

خطر النفاق

قال تعالىٰ : ﴿ **مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ** ﴾ (١).

قبل الدخول في بيان المثالين القرآنيين المذكورين حول النفاق والمنافقين ، نقدّم أولاً بياناً توضيحياً لصورة النفاق وطبيعة المنافقين وطبيعة المنافقين.

لقد عاث النفاق في مجتمع المدينة وتبلور أوكاد في تيار خطير هدّام له رموز ومنهج وطريقة في التفكير والعمل مترسّماً أهدافه المدمّرة بوجه الرسول والرسالة ورموزها المخلصين ، ولخطورة دور هذه الطائفة من الناس تحدّث

---

(١) سورة البقرة : ٢ / ١٧ . ١٨.

القرآن الكريم عنهم في سور عديدة وخصّها بسورة كاملة من سور القرآن الكريم الكريم وقد صنّف القرآن هذه الطائفة وعرّف صفات أفرادها وخطّها التحريفي وحذّر منها ، وأكّد على متابعتها والكشف عن أفرادها وأوكارها وتوجّهاتها.

وفي الواقع إن ظاهرة النفاق تتكرّر في حياة الإنسان ما دام هناك عمل وبناء وتزييف لأقنعة الدجل والالتواء ، وما دامت هنالك مصلحة وذات خربة.

ومن مواقفهم المنافقة ـ كما اجملها العلّامة الطباطبائي ـ انسحابهم من الجيش الإسلامي يوم أُحد ، وعقدهم الحلف مع اليهود ، واستثارتهم على المسلمين ، وبناؤهم لمسجد ضرار ، واشاعتهم حديث الإفك ، وإثارتهم الفتنة في قصة السقاية وقصة القبّة.

وقد هدّدهم القرآن الكريم في الدنيا بقوله : ﴿ **لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا * مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا** ﴾ [1].

وأوعدهم بوعيد يوم القيامة بقوله : ﴿ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ** ﴾ [2].

هوية المنافق

والملاحظ على هذه الطائفة جملة صفات نعرض لبعضها بأجمال :

---

(١) سورة الأحزاب : ٣٣ / ٦٠ . ٦١.

(٢) سورة النساء : ٤ / ١٤٥.

١ ـ المخادعة : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١).

٢ ـ الإفساد : والفساد ضد الصلاح ، أي خروج الشيء عن حالة الانتفاع به ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ (٢).

٣ ـ الكذب : وهو علمهم بعدم مطابقة أقوالهم للواقع ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ (٣).

٤ ـ الأيمان الكاذبة : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾ (٤). وذلك دفعاً لافتضاح أمرهم من جهة ، وتوثيق علاقتهم وتعميق ثقة الناس بهم من جهة أخرىٰ.

٥ ـ عقدة الاستعلاء علىٰ الآخرين ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ (٥).

٦ ـ إدّعاء العزّة لأنفسهم والذلّة لرسول الله ﷺ ومن معه من المؤمنين ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ﴾ (٦).

---

(١) سورة البقرة : ٢ / ٩.

(٢) سورة البقرة : ٢ / ١١ ـ ١٢.

(٣) سورة البقرة : ٢ / ١٤.

(٤) سورة التوبة : ٩ / ٦١.

(٥) سورة البقرة : ٢ / ١٣.

(٦) سورة المنافقون : ٦٣ / ٨.

٧ ـ يعيشون الخوف والوجل من افتضاح أمرهم ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ [١]. وهذا هو الجبن بعينه وعدم القدرة علىٰ مواجهة الواقع بصراحة.

٨ ـ إمامة الرؤوس حين ينكشف أمرهم معرضين عن الاستغفار ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ [٢].

٩ ـ النهي عن إعطاء الأموال للمؤمنين الفقراء الذين لازموا الرسول ﷺ ، وذلك من أجل التأثير علىٰ قدرة الرسول الاقتصادية. ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ﴾ [٣].

وهناك أخلاقية معيّنة يتّصف بها المنافقون أثناء الجهاد والتهيّؤ له ، وفي القتال ، وتعرضت لها سورة التوبة بشكل تفصيلي. ولا يبعد أن يكون من المنافقين من آمن ثم ارتدّ بعد إيمانه كاتماً هذا الارتداد ليتربّص بالنبي ﷺ وبالمؤمنين الدوائر قال تعالىٰ : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ [٤].

فينبغي الحذر من هذه الحالة التي تصادر علىٰ المؤمن إيمانه في موقف من المواقف أو فيحالة تستديم معه لا سمح الله.

قال تعالىٰ : ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ﴾ [٥] وقال رسول الله : « إني

---

(١) سورة المنافقون : ٦٣ / ٤.

(٢) سورة المنافقون : ٦٣ / ٥.

(٣) سورة المنافقون : ٦٣ / ٧.

(٤) سورة التوبة : ٩ / ٧٧.

(٥) سورة المنافقون : ٦٣ / ٤.

لا أخاف علىٰ أُمّتي مؤمناً ولا مشركاً ؛ أما المؤمن فيمنعه الله بإيمانه ، وأما المشرك فيقمعه الله بشركه ، ولكني أخاف عليكم كلّ منافق الجنان ، عالم اللسان ، يقول ما تعرفون ، ويفعل ما تنكرون » [1].

ان طائفة هذا خطرها وعدوانيتها المدمّرة علىٰ طبيعة المجتمع الاسلامي لا بدَّ أن يتصدى القرآن الكريم لتعريتها وكشف حقيقتها وعرضها من أجل أن تتّضح هذه الصورة النفاقية في نفوس من خفي عليهم أمرها وانخدعوا بها ، وكذلك للوقاية والحذر من وقوع الآخرين في حبائلها.

وأمام هذه الطائفة المنافقة لابدَّ من وقفة مجاهدة يبذل فيها الجهد وتتّفق الطاقات وتراق فيها المهج ، فالمنافقون يفوقون الكافرين المشركين خطورة ، فهم مضافاً إلىٰ منهجهم التحريفي يتحركون في الخفاء ويدبون دبيباً لا يرىٰ ، ولذلك فالقرآن الكريم يلقي شرعية متابعة وملاحقة هذا الخط المهزوم الخبيث علىٰ عاتق المؤمنين المجاهدين.

وفي تصوير هذا الخط وتصوير النفس المنافقة حين تعيش هذه الحالة استخدم القرآن الكريم المثال الذي يكون الغرض منه تشبيه الخفي بالجلي والغائب بالشاهد فيصير الحسّ مطابقاً للعقل كما سنبيّنه.

المنافقون هم العدوّ

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ

---

(١) نهج البلاغة : الكتاب ٢٧.

يُؤْفَكُونَ ﴾ [1].

لم تكن الكلمة التي أطلقها شيخ المنافقين عبد الله بن أُبي بعد واقعة بني المصطلق ، علىٰ أثر نزاع بين شخص من الأنصار وآخر من المهاجرين ، كلمة فحسب بل معبّر عن واقع فكري منحرف ونفس محشوّة بالخبث والنفاق ، وكان يقصد بها فرقة المسلمين وضرب الصف المسلم الذي يعايش حالة من الانتصار والغلبة علىٰ أعداء الإسلام.

لقد قال شيخ المنافقين : « سمَّن كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا إلىٰ المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » [2] وكان يقصد بذلك اللمز بالمهاجرين ، وعزمه علىٰ إخراج الرسول صلى الله عليه وآله من المدينة ، فأخبر الشاب الغيور زيد بن أرقم رسول الله صلى الله عليه وآله بما حصل ، وبعد ذلك راج التحريف وأخذ الرهط المنافق بالتشكيك في شخصية زيد بنأرقم من أجل حكاية شيخهم ابن أُبي ، ودفع ما قيل عن فضائحه ، حتىٰ نزلت هذه الآيات ، وأخبر الرسول صلى الله عليه وآله فافتضح أمر المنافقين ، وتعززت مكانة زيد بن أرقم وأثمر صبره ، وحظي بحب المؤمنين ، وكبرت ثقته في مجتمع رسول الله صلى الله عليه وآله .

إن الذي يلفت الانباه هو أن هذا الطابور لا يتوقف علىٰ مرحلة زمنية معينة ، وله قابلية الانتشار في أية بقعة تستكمل شروط النشأة والتطور لهذا الوجود المنافق المشؤوم في المجتمع ، وقد يتزعم مثل هذا التيار الخطير رجال وجماعات من مقدمة القوم الذين صودرت بعض صلاحياتهم ،

---

(١) سورة المنافقون : ٦٣ / ٤.

(٢) راجع : تفسير القمي ٢ : ٣٦٨.

ويذكر في هذا السياق أن عبدالله بن أُبي كان قومه قبل قدوم رسول ﷺ الىٰ المدينة يحضِّرون ويضعون له تاج الرئاسة عليهم ، ليكون مجتمعها في إمرته ، فرأىٰ في القادم المبارك مزاحماً قوياً ومنافساً يقضي علىٰ أحلامه وخيالاته ، فاتخذ هذا الموقف المنافق ، وراح يظهر السلم والكلام الجميل المنمّق ، بينما هو يبطن الحقد والمكر ، ويعمل من أجل الكيد بهذه الرسالة المباركة الجديدة ورسولها الكريم.

وفي هذا المقطع راحت الآيات المباركة تكشف بعض حقيقتهم وترسم حركتهم بين الناس ، قهم ــ كما أسلفنا ــ معروفون لدىٰ المجتمع ، ولربما يحتلون أماكن هامة فيه ، ويهتمون بجمال المظهر ، إذ تعجب أجسامهم الآخرين ، ويعتنون كذلك بالكلام الجميل المعسول حتىٰ لا ينكشف أمرهم ، وقد صورهم القرآن الكريم بأنهم كالخشب المسنّدة ، فهي ظاهرة معروفة إذن ولكنها مسنّدة لا تستطيع ان تقوم بنفسها لضآلة محتواها وضعفها الحقيقي ، فتحتاج إلىٰ ما يسندها ويثبتها ، ثم كشف عن حالة نفسية يعايشها المنافق ، حيث أنه يضع نفسه دائماً موضع الاتهام ، ويعتقد أن كلّ نقد أو محاسبة موجهان إليه بالذات ، وأنه هو المقصود وراء تشخيص أية ظاهرة سلبية في المجتمع ، وهذه حالة تنم عن مدىٰ الرعب والخوف الذي يمتلك هذه الشخصية المنافقة.

وقد أكّدت الآية علىٰ أنهم هم الأعداء الحقيقيون ، ويجب الحذر من هذا التيار الخطير ، حيث يقاتلهم الله ، وما أضعف هذا الإنسان حين يكون مطروداً من رحمة الله ، ويكون موضع مكره وكيده سبحانه.

ظلمة النفاق

قال تعالىٰ : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ (١).

علىٰ سبيل كشف أبعاد هذا الوجود المنافق وأدواره الخطيرة في نفوس المجتمع المسلم ، تعرّض القرآن الكريم إلىٰ بيان ذلك بطريقة المثل ، فجاء بالمثال الأول ضارباً لذلك النار أو ما يستتبعها من النور ، والاسلام العظيم بعقيدته وأحكامه هو نور لسالكيه ، يهدي إلىٰ الرشد ، ويحقّق للإنسان منفعته ، ويوصله إلىٰ سلامة المنقلب ، فحين يضيء الإسلام بآثاره علىٰ مريديه ويعيش في نفوس متبعيه ، فانه يقضي علىٰ كلّ ظلمة في زوايا هذا الإنسان ، فتستحيل حياته الى نور يبصر فيها ، وتطمئن نفسه الىٰ ما يحيط به ، إذ تتضيق بذلك دوائر جهله بشؤون حياته ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٢). بينما الإنسان الضالّ يتردّد في غيّه ، وتنحبس نفسه ، ولا ينطق ضميره في هذا الوجود ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ (٣).

وانطلاقاً من هذه المناسبة للإيمان والكفر ، جاء مثل النار المحسوسة والمرئية

---

(١) سورة البقرة : ٢ / ١٧ . ١٨.

(٢) سورة الملك : ٦٧ / ٢٢.

(٣) سورة البقرة : ٢ / ٢٥٧.

وأثر النور المتولّد عنها في واقع الحياة لتجسيد حالة شعورية وتشخيص مواقف يستبطنها النفاق ، فالذي يعيش وسط الظلام وتنعدم في ناظريه مشخصات الطريق ، يلتمس له نوراً ، فيطلب إيقاد النار أو يوقدها لينتفع بها في تبديدها للظلمات بالمقدار الذي يكشف له الطريق ، ولكن هذه الاستفادة لم تدم إذ سرعان ما ستنطفي النار ويخيّم الظلام عليهم من جديد ، وهذا هو حال المنافقين في دار الدنيا الذين لم يبصروا الهدىٰ وفقدوا وسائل تحصيله فانهم سيبقون هكذا في ظلمات لا يبصرون فيها فيعيشون الحيرة والتيه ، وتضلّ مواقفهم ، وتضطرب لذلك مشاعرهم ، وتتفرّق قواهم بين نقيض أعمالهم ودهشة الظلمات التي تغطّي آفاقهم ، فمن يفقد النور سيتخبط في سيره خبط عشواء ويتعثّر.

وهؤلاء المنافقون حين أظهروا الإسلام تمتّعوا بحقوق المجتمع المسلم كغيرهم من المسلمين ، فحفظت حقوقهم وحرمت دماؤهم وتناكحوا وتعاونوا ، وحين ماتوا انتقلوا الىٰ ظلمات وعذاب وغضب الجبار ، وأحيطوا بظلمات منقلبهم بسوء أفعالهم. فما أشبههم إذن بمن استضاء من الظلام بنار ثم انطفأت عنه فعاد إلى عماه وحيرته !

عن ابن عباس ، قال : « هذا مثل ضربه الله للمنافقين ، إنهم كانوا يغترون بالإسلام فيناكحهم المسلون ويوارثونهم ويقاسمونهم الفيء ، فلما ماتوا سلبهم الله ذلك العز كما سلب صاحب النار ضوءها »[1].

ومن الصور البلاغية في الآية ؛ استعمل القرآن عبارة ﴿ ذَهَبَ اللَّهُ

---

(١) تفسير ابن كثير ١ : ٥٤.

بِنُورِهِمْ ﴾ [1] فعدّىٰ الفعل بالحرف ولم يعدّه من باب « الإفعال » ، و « الباء » بمعنىٰ « مع » . فأذهبه : أزاله وجعله ذاهباً ، وأما ذهب به فمعناه استصحبه ، والمعنىٰ يكون أخذ الله نورهم وأمسكه ﴿ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ ﴾ [2] وهو أبلغ من الاذهاب ، وحين ذهب الله بنورهم تركهم يخبطون في ظلماتهم لا يسمعون ولا يتكلمون ولا يرون ، وسدّت عليهم منافذ الرحمة « السمع والقول والبصر » وسوف لا يرجعون الىٰ الهدىٰ لتمسّكهم بحالة النفاق.

ضياع المنافقين

قال تعالىٰ : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ * يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [3].

الصيب : المطر والسحاب. **والظلمات** : ظلمات السحاب وظلمات الليل وظلمات المطر بتتابع قطراته. **الرعد** : الصوت المسموع من السحاب. **البرق** : ما يلمع من السحاب. **الصاعقة** : قصف الرعد ، وتحصل فيه شعلة من نار مدمّرة إلّا انها سريعة الخمود. **الخطف** : الأخذ بسرعة.

---

(١) سورة البقرة : ٢ / ١٧.

(٢) سورة فاطر : ٣٥ / ٢.

(٣) سورة البقرة : ٢ / ١٩ . ٢٠.

يعرض هذا المثل القرآني صورة مليئة بالحركة والقلق والاضطراب ، فالقرآن بريشته المقدّسة يرسم حركة النفس المنافقة فيستعين بظاهرة كونية وهي المطر الهاطل الغزير من كلّ أنحاء السماء يصاحبه ظلمات ورعد وبرق ، فهذا المطر يضطرّهم إلىٰ الفرار ، ولكن الظلمات الحاصلة والخوف والرعب من الرعد ، والبرق يمنعهم من الفرار ، فيضطربون في حيرة ، ثم يجعلون أصابعهم في آذانهم خوفاً من أصوات الرعد المحيطة بهم والمهدّدة لهم بالموت والفناء ، ويظنّون بوضعهم أصابعهم في آذانهم أنهم سيتخلّصون من الصواعق ، ولكن أصابعهم لا تمنع عنهم الموت والهلاك ، ومثل ذلك المنافق يظنّ أن في إظهاره الإيمان نفعاً يدفع عنه الضرر والأخطار ، ولكن أنّىٰ لهم ذلك ، فأثر الظاهرة الكونية لا يندفع حقّاً بحركة إصبع.

وقد يخيل للبعض ان البرق يكشف الظلمة ، ولكن الآية تصرّح بأن هذا البرق من القوة يكاد يخطف أبصارهم ويأخذ نور أعينهم ، ومن خلال هذا البرق الخاطف تكشف الآية عن حالة نفسانية للمنافقين ، وهي تردّدهم وحبّهم للمصلحة ، فمتى تحقّقت مصالحهم ﴿ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم ﴾ [1] رضوا ورغبوا في الدين ﴿ وَإِذَا أَظْلَمَ ﴾ [2] بانتهاء هذا البرق الخاطف ثبتوا وتوقفوا عن إبداء تلك الرغبة المنحرفة ، وهكذا حين نلحظ هذه الحركة القلقة لدىٰ المنتفعين بهذا البرق الخاطف السريع الزوال ، نقف علىٰ شدة الانهيار في نفوس المنافقين الناجمة من حالة التردّد والتمزّق بين مصالح الذات وبين حالات الامتحان والابتلاء.

---

(١) و (٢) سورة البقرة : ٢ / ٢٠.

والمطر نافع بنفسه إذا لم تصاحبه الظلمات والرعد والبرق ، وكذلك إظهار الإيمان هو نافع إذا وافقه الباطن ، وإلّا فلا يستقيم إيمان ظاهر من غير محتوىٰ وتصديق له في العمل سرّاً وعلناً.

فإنسان تحيط به ظلمات السحب والمطر والليل مضافاً إلىٰ رعب هذه الظلمات والصواعق المحيطة به ، وهو واقع في حيرة من أمره ، لا يخرج منها إلّا وقد فاجأته حيرة جديدة واضطراب آخر ، كيف يمكن أن نتصوّره إذن ؟ وهذه الصورة جسّدها المثال الثاني في القرآن الكريم لبيان حيرة نفس المنافق وقلقه.

النفاق تشكيك وطعون

أراد النفاق المهزوم عبر طريقته في التشكيك أن يطعن في اسلوب المثل القرآني ، وينتقص من حالات ضربها القرآن الكريم أمثلة ، فقالوا : أي قدر للذباب والعنكبوت حتىٰ يضرب الله المثل بهما بأمثالهما ؟ باعتبار ان هذا الصغير لا ينسجم وعظمة الله فجاء قوله تعالىٰ : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ * الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾ [1].

---

(١) سورة البقرة : ٢ / ٢٦ . ٢٧.

فالجواب الإلهي يشتمل علىٰ جملة أمور :

١ ـ ﴿ إِنَّ اللَّـهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا ... ﴾ كأنه جاء جواباً لقول الكفرة : أما يستحي ربّ محمّد ان يضرب مثلاً بالذباب والعنكبوت ، فجاء علىٰ سبيل المقابلة واطباق الجواب علىٰ السؤال ، فمعنى ﴿ إِنَّ اللَّـهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا ... ﴾ هو سبحانه لا يترك ضرب المثال ولو بالبعوضة ؛ لأنها وإن كانت ضعيفة إلّا أنها من خلق الله وصنعه المتقن العجيب ، بل هي من جند الله بحيث يمكن تسخيرها للقضاء على أمة بكاملها لما تحمله من جراثيم فتاكة ، في حين لا تتأثر بها !!

٢ . قيل في معنىٰ ﴿ فَمَا فَوْقَهَا ﴾ معنيان :

أ ـ ما زاد علىٰ البعوضة في حقارتها وصغرها كقولك : فلان أسفل الناس وأكثر.

ب . ما زاد علىٰ البعوضة في حجمها وكبرها.

٣ ـ ان ضرب الأمثال هو لتقريب البعيد وإدناء المتوهم من الشاهد ، فهذا غرض المثال وهدفه بعيداً عن حجم وشكل المتمثل به ، ولكن هناك وجهاً للماثلة بين التمثيل به وما يرمز إليه ، فمن خلال مطالعة سريعة لموارد المثل القرآني نجد مثل النور والضياء للإيمان والحق الأبلج ، ومثل الظلمة للنفاق والكفر ، وقد ضرب القرآن الكريم بيت العنكبوت مثلاً في الضعف والوهن.

ولا ريب أن الله سبحانه هو خالق الكبير والصغير ، وليس الصغير أخفّ عليه من الكبير ، وليس العظيم أصعب من الصغير ، فهناك مناسبة إذن في ضرب المثال ، ولا أثر لهذه الاعتبارات الشكلية.

ثم أن التمثيل بحقير الأشياء وصغرها جاء علىٰ لسان العرب أنفسهم حين

يقولون : أخطأ من الذباب ، وأصفىٰ من لعاب الجراد ، وأعزّ من مخ بعوضة ، انما يقصدون بذلك المعاني التي وراء هذا الأمثال.

٤ ـ سنة الابتلاء والامتحان نفسها ؛ ليفوز من يفوز بإيمانه ، وليضل من كفر ، فمن طبيعة المؤمنين أنهم يتلقّون ما يأتيهم ممتثلين طائعين ويزيدهم إيماناً إلىٰ إيمانهم ، ولكن الذين كفروا يكابرون فيتساءلون متنكرين لأمثلة يضربها القرآن الكريم : كيف يستخدم صغير الأشياء أو حقيرها كالذباب والعنكبوت وغيرها ؟

وهكذا يُبتلى الإنسان بسنة الامتحان ، فيهتدي بعضهم ، ويضل كثير ، كلّ حسب استعداده للهداية والضلال.

نماء الإنفاق

﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١).

إن القران الكريم أولىٰ مسألة الانفاق في سبيل الله أهمية كبيرة ، ففي هذا المقطع الكريم من القرآن أوضحت الآيات المباركة ضوابط أساسية في هذا الانفاق كحضور النيّة الخالصة ، وإبطال الانفاق بالرياء وبإتباعه بالمنّ والأذىٰ ، وأن يكون المال طيّباً لا خبيثاً. وتنطلق هذه الأهمية لمسألة الانفاق من كون

---

(١) سورة البقرة : ٢ / ٢٦١.

الانفاق يسهم في تطهير النفوس ، وفي تأسيس العبودية الصادقة لله سبحانه ، ومن ناحية أُخرىٰ فإن الانفاق ركيزة أساسية في بناء مجتمع التكافل مثل الزكاة والخمس والكفارات والصدقات المندوبة والفدية والوصايا والهبات وأمثالها.

فتواجهنا هذه الآية المباركة بالانفاق « في سبيل الله » لتضفي عليه حالة نماء وزيادة فعلىٰ الرغم من أن الاعطاء ظاهرة يؤدّي إلىٰ نقص في ما يملكه المنفق ، لكنّا في المنطق القرآني نقف علىٰ حالة مضادّة ، فيضرب القرآن لهذه المضاعفة صورة مجسّدة تألفها النفوس ، وتحسها بالمعاينة ، فهي كحبة القمح الواحدة حين تزرعها ثم تثمر لك سنابل فيها حب كثير ، ويعدم القرآن الكريم بهذا المثل الرائع التصور الشائع بان الاعطاء ينقص في مال المنفقين ، ثم يعقب علىٰ هذه المضاعفة بانها يمكنها أن تخضع لزيادة أُخرىٰ يريدها الله سبحانه.

قال الإمام الصادق عليه السلام : « **إذا أحسن العبد المؤمن عمله ، ضاعف الله عمله بكلّ حسنة سبع مائة ضعف ، وذلك قوله عزّوجلّ** : ﴿ **وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ** ﴾ [1] » [2].

ولربما يفهم من سياق الآية ان المضاعفة تكبر تزداد كلما خلصت نية الانفاق ، وَتَطهَّرَ صاحبها من ألوان الشرك كما تباع هوى النفس ، وعشق السلطة ، وحبّ الجاه وغيرها ﴿ **وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ فللّه خزائن السماوات والأرض ، ولا يضيق عطاؤه ، ويسع حاجات عباده ، وهو عليم بالمستحقّ.

والمثال بحذف مضاف وتقديره « مثل نفقتهم كمثل حبة » أو « مثلهم كمثل

---

(١) سورة البقرة : ٢ / ٢٦١.

(٢) أمالي الطوسي : ٢٢٤ / ٣٨٨.

باذر حبة ».

وجاءت الآيتان بعد هذا المثل لتؤكّدا استقامة الانفاق الذي يأمر به الله سبحانه عباده ، فقال تعالىٰ : ﴿ **الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ** ﴾ [1].

فيفهم من ذلك :

١ . الإنفاق يكون في سبيل الله مع خلوص النية فيه.

٢ ـ عدم إلحاق المنّ والأذىٰ بهذا الانفاق بعد أدائة ، فالمنّ كقول المسؤول للسائل : ألم أعطك ؟ ألم أحسن إليك ؟ والأذىٰ : أن يعبس بوجهه أو يتعبه أو يؤذي سائله.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « **من أسدىٰ إلىٰ مؤمن معروفاً ، ثم آذاه بالكلام أو منّ عليه فقد أبطل الله صدقته** » [2].

٣ ـ ان ردّ السائل بالقول الحسن والمعروف والكلمة الطيبة خير وأفضل من صدقة يتعها أذىٰ.

آفة الانفاق

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ**

---

(١) سورة البقرة : ٢ / ٢٦٢ . ٢٦٣.

(2) تفسير القمّي ١ : ٩١.

مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [1]. تؤكد الآية الكريمة على أن الحاق الصدقات بالمنّ والأذىٰ هو سبب لبطلان هذا الانفاق واحباطه ، وقد ضرب الله في هذه الآية مثلاً للمرائي والمنّان الذي يصطنع معروفاً ثمّ يتبعه بالمنّ والأذىٰ [2].

وهناك فارق ظاهر بينهما ؛ فالمنّان يقع عمله صحيحاً ثم يعرض له البطلان ، أما المرائي فعمله باطل من الأساس لبطلان نيّته ، فحين يعمل يريد أن يُرى الآخرين عمله ، ولكن في هذه الآية ـ كما يقول الطباطبائي ـ المراد بها من عدم إيمان المرائي بالله واليوم الآخر ، هو عدم إيمانه بدعوة الانفاق التي أمر بها الله سبحانه ، وأعد لأهلها الثواب الجزيل ، وبالتالي فعدم إيمان المرائي لا يعني عدم إيمانه بالله سبحانه من الأساس [3] فقد يعرض له أثناء عمله. ولهذه المجانسة يمكن تشبيه عمل المنّان بعمل المرائي.

ومن أجل تجسيد هذه الصورة في بطلان هذا العمل وعدم كتابة الأجر له ، مثّل القرآن الكريم ذلك بـ « الصفوان » وهو الحجر الأملس عليه تراب قليل لا يصلح أن يكون أرضاً للزراعة والانبات ، فإذا نزل « وابل » وهو المطر الكثير القطر ، أزال التراب وكشف الحجر الأملس الذي لاينبت فوقه شيء وإن غمره المطر ؛ إذ لا وجود لهذا التراب الذي كان يوهم بامكانية الإنبات فيه حين ينزل مطر السماء عليه ، وهذا هو شأن المرائي والمنّان حين ينفقان أموالهما لا يقدران

---

(١) سورة البقرة : ٢ / ٢٦٤.

(٢) تفسير القمي ١ : ٩١.

(٣) تفسير الميزان ٢ : ٣٨٩.

ولا يحصلان علىٰ شيء من الثواب علىٰ ما أنفقوا.

وفي التمثيل لخلوص النيّة في الإنفاق قال تعالىٰ : ﴿ **وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ [1].

فالذين ينفقون أموالهم طلباً لمرضاة الله وتصديقاً للاسلام وتحقيقاً للجزاء من أصل أنفسهم مثّل القرآن عملهم بالجنة ، وهي الزرع والبستان الملتفّة أشجاره لكثرتها ، علىٰ « ربوة » أي مرتفع من الأرض ، وعادة يكون الزرع في المرتفع أفضل ريعاً وأطيب مما دونه ، وينزل الوابل عليها فتؤتي ثمرها مرتين ، أي مثلي ما كانت تثمر بسبب الوابل ، وإن لم ينزل عليها وابل فطلّ ، وهو المطر الصغير القطر يكفيها لكرم منبتها ، وقد مثّل الله حالهم بالجنة ، وانفاقهم الكثير بالوابل ، والانفاق القليل بالطل ، وفي كلام أمير المؤمنين علي عليه السلام ما يصوّر لك ضرورة الانفاق وإن قلّ. قال عليه السلام : « **لا تستحي من إعطاء القليل ، فإنّ الحرمان أقلّ منه** » [2]. ذلك لأنَّ الانفاق زاكٍ عند الله سبحانه ما دام متوفراً علىٰ نيّة القرب والزلفىٰ من الله سواء أكان قليلاً أو كثيراً ، كما يضاعف ثمر الجنّة ضعفين ، فهذان المثالان الشاخص أثرهما أمام نواظرنا نتحسّس فيهما أثر النيّة في العمل ، ومن الحديث الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وآله حديث : « **إنما الأعمال بالنيّات** » [3].

---

(١) سورة البقرة : ٢ / ٢٦٥.

(٢) نهج البلاغة . قصار الحكم (٦٧).

(٣) الكافي : ٢ : ٦٩ / ١.

الهداية حياة

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [1].

الإنسان بطبيعته قادر على التمييز بين الموت والحياة ، فهو يرىٰ الأحياء المتحرّكة والأجسام الجامدة المتشكّلة من حوله ، ويحسّ بأثر الحركة المندفعة في هذه الأحياء بينما تلكم الأجسام الجامدة غير قادرة وفاقدة للتعبير عن أية صورة من صور هذه الحياة.

ويعيش هذا الإنسان نفسه حالة وجدانية مثيرة حين يحمل جثة انسان تخشّبت بعد موتها وهي غير قادرة علىٰ حراك أو إثارة بعد أن فقدت سرّ جمالها ومبعث حركتها ، وهو يتذكّر حركة هذا الإنسان قبل موته ، ولربما شاهده بنفسه فتكون أكثر تعبيراً واثارة لبيان قيمة الحياة وأثرها في دنيا الإنسان ، ومن هذا الواقع المتجسّد الراسخ في حياة الإنسان ، ومن مشاهداته المتكرّرة لظاهرة الموت والحياة ، جاء القرآن الكريم ليمثّل للهداية والضلال بالحياة والموت ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [2] وفي بينها يقول الإمام الصادق عليه السلام : « **من أخرجها من ضلال إلىٰ هدىٰ فكأنّما أحياها ، ومن أخرجها من هدىٰ إلىٰ ضلال فقد قتلها** » [3].

---

(١) سورة الأنعام : ٦ / ١٢٢.

(٢) سورة المائدة : ٥ / ٣٢.

(٣) الكافي ٢ : ٢١٠ / ١.

فالضالّ الذي ليس علىٰ طريف الله يعيش في ظلمات غارق فيها لا يخرج منها ، فهو في ظلمات عديدة كظلمة النفس والدنيا وتزيين الشيطان ، فهذا الإنسان الضال يعيش جموداً مطلقاً شاحباً ، حتىٰ ان تصوراته للكون والحياة تتضيق فلا يرىٰ إلّا نفسه وما يتعثّر به ، فهو في ظلمات عديدة لا يخرج منها ، ولا يستطيع أن يثور عليها ؛ لأنها حوّلت الحياة الرحيبة سجناً صغيراً لأفكاره ومشاعره ، وبذلك تبلّد لديه الفكر الكوني التكاملي وتقطّعت مشاعره تقطعاً.

بينما الإنسان حين تدخل الهداية نفسه وتنبسط روحه لخالقها ، فإنها تحييه حياة طيبة ﴿ **فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً** ﴾ [1] وتثير الحياة والحركة في مقاطعه الميتة ، فهذا النشور الجديد وهذا الاحياء في ميت الضلالة ، يمكنه الاستفادة مما حوله ، وبهذا يقدر علىٰ التفاهم مع ما تحيطه من مفردات ، بل تضيف الآية الكريمة بعداً آخر في قوله تعالىٰ : ﴿ **وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ** ﴾ [2] فبعد إحيائه وحركته يستطيع إبصار ما حوله بنور إلهي يبدّد له ظلمات النفس والدنيا ، ثم يمشي في الناس بوحي من هذا النور.

فهذا النور يستتبع أثراً واقعياً ليمشي به في خلق الله من البشر ، من أجل أن يؤدّي رسالته بين الناس بفعل ما فيه من نور إلهي ، وأخيراً لاحظ الفرق الكبير متخبّط في ظلمات ، وبين ميت أحياه الله وجعل له نوراً يستنير به.

---

(١) سورة النحل : ١٦ / ٩٧.

(٢) سورة الأنعام : ٦ / ١٢٢.

الهداية بعد الانشراح

﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١).

الشرح لغةً : البسط والسعة والتهيئة لما يستقبل ، ويستعمل في جانب الخير مثل : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ (٢) ، وفي الجانب الآخر مثل : ﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ (٣). **والاضلال** : يقابل الهداية. **والضيق** : يقابل التوسعة. **ويصّعّد** : من باب « التفعّل » وفي اللفظة وقد شديد بخلاف فعلها الثلاثي المجرّد ، وذلك لبيان الزيادة في العناء والتعب والشدة. **والرجس** : لفظ عام يشمل كل دنس من قبيح وقذر ، والمراد به في الآية ، الاضلال وقيل : الشيطان ، أو العذاب ، كما قيل : اللعنة.

ان السائرين في طريق الحق يستلهمون دائماً من خارج منطقة العقل والتقدير الحسابي قوة يهبها الله سبحانه لمن يطلب الهداية ويسلكها ، بخلاف من يقصد الضلالة ، فإن الله تعالىٰ يزيد في ضلالته ويحيطه بالوجه القبيح المنفّر من قبيل العذاب واللعنة والضلالة ، ومن ذلك يمكننا أن نتبيّن عظمة النعمة وخطر الانتقام من قبل الله العزيز. وقد سُئل الرسول ﷺ كيف يشرح الله الصدر ؟

---

(١) سورة الأنعام : ٦ / ١٢٥.

(٢) سورة الشرح : ٩٤ / ١.

(٣) سورة النحل : ١٦ / ١٠٦.

قال ﷺ : « **نور يقذفه الله في قلب المؤمن فينشرح له صدره وينفسح** » فقيل له : وهل لذلك أمارة ؟ قال ﷺ : « **الإنابة إلىٰ دار الخلود والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزوله** » [1].

فالذي يكون موضع هدايته سبحانه يتناوله العزيز اللطيف بالتبصرة وتليين القلوب ﴿ **أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾ [2] وذلك من أجل أن تتوثّب هذه القلوب وتتهيّأ لتلقّي القول الحقّ والأخذ بصالح الأعمال ، وقد بيّنت الآية التي بعدها جزاء عملهم وسلوكهم الصراط المستقيم ﴿ **لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [3].

وهذه اثارة أُخرىٰ ودافع جديد ليبعث فيهم الإصرار وقوة العمل والثقة بهداية الله اللطيف وحين لم تنشرح النفس فإنها في انقباض وتوصد أمامها منابع النور ﴿ **فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾ [4].

بل تصير صدور الضالين في حرج وضيق شديد ، وقد استعملت الآية المباركة مثلاً لذلك ضمّنته إشارة علمية أصبحت من المسلّمات العلمية ، وهي أن أعالي الجو يسبّب ضيقاً وحرجاً بسبب قلّة الضغط الجوي الخارجي.

ثم إن استخدام لفظة « يَصَّعَّد » يدلّ علىٰ شدّة ومعاناة بخلاف فعلها الثلاثي

---

(١) مجمع البيان ٤ : ٥٦١ ، بحار الأنوار ٦٨ : ٢٣٦.

(٢) سورة الزمر : ٣٩ / ٢٢.

(٣) سورة الأنعام : ٦ / ١٢٧.

(٤) سورة الحج : ٢٢ / ٤٦.

المجرّد (صَعِدَ) وهذا ما يذهب إليه علماء اللغة بأن زيادة المبنىٰ في الكلمة يسبّب شدّة في المعنىٰ ؛ وزادت الآية في ذلك فاستخدمت كلمة « الرجس » وهو القبيح والقذر من الضلال أو العذاب أو اللعنة ، فيجعله الله علىٰ الذين لا يؤمنون بوحدانيّته ، أو علىٰ من يرفض بعض ما أنزل من المعارف والأحكام ، لتصير هذه القذارات حائلاً ومانعاً بين الضالّ وبين الآخرين وسبب تنفيرٍ لهم.

فضيلة البصير

﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (١).

عرض القرآن الكريم فريقين يبعد أحدهما عن الآخر بعداً لا يوصف ، ومن غير الممكن أن يكون لهذين الفريقين نقطة التقاء أو خط للتقارب إلّا أن يسجّل أحدهما حالة تراجعية عما يعتقد فيه ، فهذا الفريق الكافر الذي يفتري علىٰ الله الكذب ويصدّ عن سبيل الله ويبغيها عوجاً ويقصد الانحراف عن وعي منه وإدراك ، لا يمكننا أن نتصوّر له لقاءً مشتركاً مع الفريق الآخر المؤمن الذي يخبت إلىٰ ربّه ويعمل الصالحات ، ويسمع فيتفكّر وينتفع ببصره وبصيرته ، قال أمير المؤمنين : « **فانما البصير من سمع فتفكّر ، ونظر فأبصر ، وانتفع بالعبر ، ثمّ سلك جُدداً واضحاً يتجنّب فيه الصرعة في المهاوي** » (٢).

---

(١) سورة هود : ١١ / ٢٤.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٩ : ١٥٨.

إنَّ الفرق الكبير بين الفرقين ناشيء من نقطة الاعتقاد والتصورات والممارسات التي عليها أفراد هذين الخطين المتعارضين ، ومما يوغل في استحكام هذه الحالة هي القصد والعناد في الفريق الأول ، والمبدأية والاصرار في الفريق الثاني.

ثم إنَّ القرآن الكريم يكشف عن حالة أُخرىٰ ، وهي فقدان الفريق الكافر للولاية ، مما يورثه الضلال والتيه ، فما كانوا يستطيعون السمع ، وما كانوا يبصرون ، وبذلك هم يعطّلون حاسّتين لهما أثر خطير في تقرير موضوع الهداية في نفوسهم ، وهما السمع والبصر.

وفي هذا المقطع القرآني الكريم إشارة إلىٰ أن الفريق الأول يعدّ من الظالمين فيفضحهم الرسل والملائكة والمؤمنون وأشهاد آخرون بقولهم : ﴿ **الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ** ﴾ [1] ويزيد القرآن في بيان خطر هذا الفريق وفَضْحِهِ ، فيكشف انهم علىٰ اعوجج والتواء وانحراف في عقيدتهم ومنهجهم ، ثم أنهم ﴿ **بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ** ﴾ [2] فإذا نظرت إلىٰ جماعة ثقافتهم الانكار والكفر باليوم الآخر ، وهم علىٰ سبيل أعوج ، وتلحقهم اللعنة من مراكز الاشهاد من الرسل والملائكة والمؤمنين ، فماذا يمكن أن تقول فيهم ؟ إنهم لا شكّ سادرون في ضياع مطبق ، وليس لهم ولي من دون الله ، فلا يتذوّقون طعم العبودية والقرب من الله تعالىٰ ، وتغمرهم الذلّة والهوان.

هذا الفريق الكافر بعيد كلّ العبد عن الفريق المؤمن الصالح المطمئن بالله وإلىٰ

---

(١) سورة هود : ١١ / ١٨.

(٢) سورة هود : ١١ / ١٩.

الله سبحانه ، وقد إشار القرآن الكريم إلىٰ هذا الفارق الكبير بينهما ، فاستخدم اسلوب « اللفّ والطباق » ممّا يلقي روعة علىٰ بيان المقصود ، فجاء بهذا المثال ، والسامع لهذه الآية المباركة يقف علىٰ المسافة الكبيرة بين أتباع هذين الفريقين.

العبودية المعطلة

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [1].

من أجواء ما يألفه الإنسان ويستأنس به ، وينطلق بعيداً ليحكم علىٰ ما حوله من حقائق ومفردات في ضوء ذلك الاستئناس ؛ إنه يرىٰ كلّ شيء بنظر قصير تحجبه الحالة التي هو فيها عن الرؤية الشاملة والافق البعيد ، فالذي يعيش مثلاً داخل مجتمعه الصغير لا يرىٰ إلّا ما يرون ، فكأنه محكوم بجبرية هذه الرؤية ، ولكن هذا لا يعدم حالات تسمو علىٰ هذه الرتابة أحياناً ففي أذهان البعض قد تحدّد الشجاعة من خلال فلان الشجاع ، أو تحدّد صورة الكرم والجود من خلال فلان الكريم والجواد ، فلا يتمكّنون من إصابة معانٍ أوسع وأكبر.

---

(١) سورةالنحل : ١٦ / ٧٥ ـ ٧٦.

والقرآن الكريم يثير في هذا المقطع حالة طائفة ، فيقول تعالىٰ : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ (١).

فهؤلاء يفهمون انما يرزقهم الناس الذين من حولهم ، ويجهلون أنهم لا يملكون شيئاً من الرزق ، ولا يستطيعون ذلك ، وينطلقون بذلك مما ألفوه واستأنسوا به في حياتهم الدنيا ، فرفض القرآن الكريم هذا المقياس ، ونهاهم عن هذا التشبيه القبيح ، ومقايسة الغيب بالمحسوس ، فكيف إذن يشبّهون الله سبحانه بصفات مادية حادثة ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢).

وقد أوضح القرآن الكريم ذلك مستعيناً بواقعهم نفسه بتشبيه هذه الحالة بالفارق الكبير بين العبد المملوك الفاقد للإرادة الذي لا يملك شيئاً ولا يقدر عليه ولا يُنتظر منه أي عطاء ، وبين آخر حرّ ينفق بإرادته سرّاً وعلناً مما رزقه الله.

ثمّ ضرب القرآن للمعنىٰ ذاته مثالاً آخر مبيناً الفارق الكبير بين الأبكم أي الأخرس الذي لا يفهم أحداً ، ولا يقدر علىٰ صنع شيء أو تأديته ، وأنه كلّ وعيال وعبء علىٰ مولاه الذي يتولّىٰ أمره ، مضافاً إلىٰ ذلك أنه لا ينتفع منه خيراً في أي وجهة يتوجّه إليها ، هذا كلّه من جهة ، وبين الذي يأمر بالعدل وهو علىٰ صراط مستقيم ، وهاتان الصفتان تكشفان عن شخصية معتدلة متزنة

---

(١) سورة النحل : ١٦ / ٧٣.

(٢) سورة النحل : ١٦ / ٧٤.

بعيدة عن الإفراط أو التفريط ، وسطيّة في تعاملها ، وهي دائماً تسلك طريقاً مستقيماً غير منحرف.

ومن خلال المثالين تبيّن الجواب بديهياً برفض الطرف الأول من كلا المثالين ، فالله سبحانه لم يخلق الخلق باطلاً ، وإنّما جعل لكلّ شيء هدفه وغايته التي يتحرّك صوبها ، بينما كلّ قوة أُخرىٰ في الدنيا هي مخلوقة له سبحانه وفاقدة لهذه الصفات ، فلا يمكن تشبيه الغيب بالمحسوس ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (١).

حين تتعملق القيم

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا * كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا * لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا * فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ

---

(١) سورة الشورىٰ : ٤٢ / ١١.

السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا * وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا * هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ (١).

إنّ مواقف الإنسان تتنوّع بتنوّع القيم التي يحملها ، فهناك من يرىٰ الدنيا قيمة كلّها ، وآخر يستلهم من الآخرة موقفه في العمل ، وبذلك تتضارب المصالح تختلف الآراء ، وربما تنسحب علىٰ ذلك تبعات يصعب التكهّن بنتائجها المعقّدة ، ولبيان دور العقيدة الحقيقية في صياغة الموقف ومنطق التعامل مع مفردات المجتمع ، جاء هذا المثل حاكياً عن صاحب ثروة طائلة ورثها عن أبيه ، فاشترىٰ بها جنّتين ، وقد زرعتا بأشجار الكرم ، وأحاط بها النخل ، وكل منها مثمر ، إلىٰ جانب الزرع الذي بين الخيل والأعناب ، وقد تفجّر وسطهما نهر يسقيهما ويمدّهما بالحياة والثمر ، ولم تتخلّف كلتا الجنّتين عن الأثمار الكاملة ولم تنقص منها شيئاً. وإنّ صاحب هذه الثروة صادف رجلاً فقيراً ، وقيل إنه أخوه ، الفقير الذي تصدّق بكلّ ما ورثه من أبيه حتّىٰ مسّته الحاجة ، فدخلا في هذا الحوار الذي يكشف عن عمق القيم وقوة العقيدة في جانب ، والسطحية والضعف في الجانب الآخر ، إن صاحب الثروة أصابه الغرور ، وأخذ يستلهم قوّته من ثمر جنّته ، فأخذ ينطق بالغرور الطافي علىٰ قلبه ، فقال لصاحبه :

١ ـ أنا أكثر منك مالاً وأقوىٰ أنصاراً وحشماً.

---

(١) سورة الكهف : ١٨ / ٣٢ ـ ٤٤.

٢ . لا أعتقد أن تهلك هاتان الجنّتان.

٣ . لا أعتقد بقيام الساعة.

٤ . اني إذا انقلبت ورجعت إلىٰ الله فسأجد أفضل وأحسن منهما.

ومن ذلك تتكشّف أمامنا نفس تتناقض بفعل الغرور وحبّ الدنيا حين تتأسّر النفس بمكرها ، بينما نرىٰ فقير المال حين يعتقد بالله رازقاً ويؤمن بآخرته إيمان العارفين ، فانه ينطق بالقيم الحقّة والمواقف الصادقة ، لا تستميله الأهواء ، ولا يضرب علىٰ طبعه ثراء الآخرين ، فنقل صاحب الجنّتين الظالم لنفسه إلىٰ حديث آخر يحرّك به الفطرة ويبعدها عن أجواء الثروة والرفاه فقال له :

١ ـ أكفرت بخالقك وقد خلقك من تراب ثمّ من نطفة ثمّ جعلك رجلاً كما أنت عليه الآن ، فما أضعف من يكفر بالقادر عليه !

٢ ــ كان من الأفضل والمستحسن حين تدخل جنّتك أن لا تشعر إلّا بالمشيئة الإلهية ، وان كلّ قوّة مردّها إلىٰ الله سبحانه.

٣ ــ حين تنظر إليّ بأني أقلّ منك مالاً وولداً ، فقد يؤتيني ربّي في الآخرة خيراً مما اتاك في الدنيا ، وقد يرسل الله صاعقة من السماء علىٰ جنّتك فيحيلها أرضاً بيضاء ملساء لا يثبت عليها زرع أو يذهب ماؤها بعيداً فتصبح عديمة الماء.

ثمّ ينقلنا السياق القرآني إلىٰ مفاجأة تتعرّض لها جنّته ، فيحاط بثمرها فلا ثمر يبقىٰ ، وتصير خالية من كلّ شيء ، وحين ينظر بنفسه إلىٰ هذه الحالة التي قد مرّت فيها جنّته يأخذ بضرب يديه أسفاً وحسرة علىٰ جهده وإنفاقه فيها ، فتنتفض فطرته وتعود إلىٰ قرارها ، ويتبرّأ ممّاعلق فيه من شرك بالله سبحانه في وقت انعدم فيه النصير وما يدفع به الأذىٰ عن نفسه فيقول تعالىٰ : ﴿ هُنَالِكَ

﴿ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ [1].

صنميّة الإتّباع لدى المشركين

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [2].

جاء هذا المثل بعد دعوة الناس الذين انحرفوا عن الطريق المستقيم إلىٰ ما أنزل الله وكيف تذرّعوا بسنّة الآباء والأجداد وأعرضوا عن دعوة الحق ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [3].

إنّ هذه الطائفة من المقلّدين لموروثات أخذوها عن آبائهم هم في ضلال قناعة خاطئة ، وليسوا علىٰ استعداد لمناقشتها وكشف زيفها ، وهنا تتجلّىٰ حاجة إنسانية افتقدتها أصناف بشرية عديدة ، فهذه العبودية المرفوضة للصنم والاتباع الأعمىٰ لسنّة الآباء من غير تدبّر تلغي في الإنسان قدرته علىٰ عقلنة المواقف ، علماً أن الفكرة والمعتقد والسلوك وحتىٰ الممارسة العملية للفرد والمجتمع ، تخضع لطبيعة الحاجة التي تتولّد ، وتعزّزها حالة الصراع والمنافسة في دنيا الناس ما دام ذلك من صنع الإنسان نفسه ومن وحي فكره المحدود.

وحثّ أهل البيت عليهم السلام الناس علىٰ أن لا يتابعوا كلّ أحد علىٰ رأيه وأن

---

(١) سورة الكهف : ١٨ / ٤٤.

(٢) سورة البقرة : ٢ / ١٧١.

(٣) سورة البقرة : ٢ / ١٧٠.

يتوخّوا الحقّ والصدق ، قال الإمام الصادق عليه السلام لرجل من أصحابه : « **لا تكونن إمّعةً ، تقول أنا مع الناس وأنا كواحد من الناس** » [1].

هذه الظاهرة تنذر بالخطر ، وتهدّد كيان الأمة ، وتعمق حالة الجهل والعناد ، وتشتدّ فيها العصبية حتىٰ تتبلور تياراً يضمّ ركائز اجتماعية ومحاور خطيرة ومريدين من أبناء الأمة نفسها ، وبالتالي فهذا اللون من التكفير والمواقف المتشنّجة وسدّ الطرق أمام أيّة محاولة لانبثاق النور وتبديد ظلمات الجهل والتعصّب والنظرة الصنمية لهذه الموروثات ، سيحيل كلّ ما لدينا إلىٰ يباب وعثرات في طريق العمل.

هذه الصنمية المرفوضة قد تتّخذ أشكالاً متعدّدة ، وتتشكّل حول أوهام وتصورات يعزّزها الإنسان ويتوارثها أبناؤه ومريدوه ، فتحاط بهالة من التقديس وتؤخذ علىٰ أنها مسلّمات لا يمكن الاقتراب منها ، ولا يسمح بالحديث عنها ، وهذا لا يتوقّف علىٰ مرحلة زمنية معينة أو مكان معين ، بل يمكن أن يتكرّر ويعود مرّات ومرّات ما دام ثمة انغلاق واعتزاز بموهومات فرزها عقل محدود. ولخطورة هذه الحالة عالجها القرآن وأثارها في مواضع متعدّدة ، وألقىٰ باللوم علىٰ الغافلين والجاهلين والمعاندين ، وأثار في مجتمع القرآن التدبّر والتأمّل والتعقّل في ما يواجهه هذا الإنسان من مواقف ومتبنّيات فكرية ، فنقلها القرآن الكريم ضمن أُسلوبه التربوي في الأُمة إلىٰ مجسّدات يحسّها القاصي والداني والعالم والجاهل.

ثمّ زاد الله في تبكيت أولئك السادرين في غيهم ، فوصفهم بالصمّ والبكم

---

(١) معاني الأخبار : ٢٦٦ / ١.

والعمي الذين فقدوا منافذ السمع والقدرة على الاستجابة لما دعوا إليه ، ولم يشاهدوا دلائل التوحيد والحقّ ، فهم بذلك لا يعقلون حين سدّوا عليهم منافذ التعقّل ، وقد صاروا أضلّ من البهائم ، لأنهم فقدوا بوابات التعقّل التي لم يمتلكها البهائم في أصل الخلقة ، ويمكن تقدير المثل « مثل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع .. » .

وإنّ نداء هذا الداعي كنداء الراعي حين ينعق على بهائمه ! فهي لا تحسّ بما وراء ندائه وطلبه منها إلّا صوت نعيقه وزجره لها ، ولا تفهم شيئاً آخر ، ولا تعي كما يفهم العقلاء ويعون.

الكشّاف

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [1].

النور كاشف بذاته مبدد للظلمات ومضيؤها ، وهذا الوجود كلّه من فيض نوره سبحانه ، والله جلّ شأنه هو الدليل الهادي والكاشف لظلمات النفس ، وقد هدى الخلق بعد إيجادهم ببيان الطريق المستقيم ، وتزويدهم بالحجّة والدليل ، وجرى الكون وانتظم ضمن سُننه وقوانينه ، قاهتدى بعد خلقه ، وهذه النورانية

---

(١) سورة النور : ٢٤ / ٣٥.

منبثّة في تضاعيف الكون وطيّات النفوس ، وحين تغيب عن وجدان الإنسان ، سيركن إلىٰ ظلمات الأرض ويفقد هداه ، ويضلّ ، وتضطرب نفسه ، وترتعد جوارحه من شدّة الخوف وغياب الأمن وضلال الطريق ، جاء في دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام : « **وهب لي نوراً أمشي به في الناس ، وأهتدي به في الظلمات ، وأستضيء به من الشك والشبهات** » [1].

ومن يتأمّل في مفردات هذا الكون وفي زوايا حياته الاجتماعية ووجوده الإنساني وينظر إلىٰ الطبيعة التي فطرها الله سبحانه وأنشأها وسخرها لخدمته ، يجد نوراً إلهياً يسري في هذه الموجودات ، وروحاً عامة تضبط أطرافها ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** ﴾ أي منوّرها ، يحسّها في قوانينها المنتظمة المتناغمة مع بعضها بعيداً عن أية حالة فوضوية تعبث في مسيرتها باستثناء الدائرة الاختيارية للإنسان ، وما ينتج عنها ويترتّب عليها من صنع الإنسان نفسه.

ولكن حين يملأ الشؤم صدر هذا الإنسان ، ويحاول أن ينظر في هذه الموجودات من نفس غطّتها سحب الضلال وظلمات التيه والانحراف ، فإنه لا يرىٰ هذا النور الذي يملأ السماوات والأرض إلّا بقدر ما تحياه فطرته من نور الوجود.

وفي هذه الآية الكريمة أضاف الله سبحانه النور لنفسه ﴿ **مَثَلُ نُورِهِ** ﴾ وهنا يذهب السيد الطباطبائي رحمه الله إلىٰ أنّ المقصود به هو النور الذي يلقيه علىٰ المؤمنين بدليل قوله تعالىٰ : ﴿ **يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ** ﴾. [2]

---

(١) الصحيفة السجادية : الدعاء ٢٢.

(٢) تفسير الميزان / الطباطبائي ١٥ : ١٢٥.

وقال الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالىٰ : « ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [1] : **إنما المؤمنون يوم القيامة نورهم يسعىٰ بين أيديهم وبأيمانهم حتّى ينزلوا منازلهم من الجنان** » [2].

ومن أجل هذا المغيّب الواسع الكبير ضرب القرآن له مثلاً من واقعهم حتىٰ يُتمكن من إدراك هذا النور الشفيف الذي يبدّد ظلمات النفس ويهدي إلىٰ الحقّ ، فالمشكاة هي الكوّة في الجدار يوضع فيها المصباح ليشتدّ ضوؤه بتجميعه وتكثيفه ، ويذهب المثال إلىٰ أن هذا المصباح في زجاجة تمنعه من الانطفاء وتنظّم شعلته من حركة الريح ، وهذه الزجاجة بنفسها شفافة تشبه الكوكب الدرّي في لمعانه مما يزيد الضوء شدّة ولمعاناً ، وهذا المصباح يستمد وقوده وشعلته من شجرة زيتونة بارك الله فيها تستمر تغذيتها علىٰ الدوام ليصفو زيتها ز يحسن إيقاده ، فهو زيت يكاد يضيء من غير نار لإشراقه وشفافيته الذاتية وقابليته العالية للإشتعال.

ثم عبرّت الآية عن شدّة النور وقوّته بقوله : ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ [3] وأخيراً ، جعل الله سبحانه هذا النور هادياً لمن يصلح أن يكون محلاً لهدايته ، وذلك حين يستقيم باطن الإنسان وظاهره ، وقد جاء بعد الآية قوله تعالىٰ : ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [4] مصداقاً لذلك.

---

(١) سورة الحديد : ٥٧ / ١٢.

(٢) نور الثقلين ٣ : ٦١٢ / ١٩٩.

(٣) سورة النور : ٢٤ / ٣٥.

(٤) سورة النور : ٢٤ / ٣٧.

ولاية العنكبوت

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [1].

افتتحت سورة العنكبوت آياتها بالحديث عن سنة الافتتان ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [2] ثمّ راحت الآيات تتحدّث عن حياة الأقوام السالفة ، وتكشف عن قوّتهم وضعفهم ، بينما قام المتقون إلىٰ جنب أنبيائهم يدافعون عن الحق ، ويرفضون كلّ ولاية مزيفة إلّا ولاية رب العالمين ، في الطرف الآخر راح الكفر يتمادىٰ في رجاله المخذولين ، فظهرت ولايات عديدة تنتسب لغير الله سبحانه.

وقد عرض القرآن الكريم لقصص الماضين كقوم نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسىٰ عليهم السلام ، وكشف هذا العرض القصصي المهيب عن حالات الافتتان التي تعرّض لها الأنبياء عليهم السلام وأتباعهم المؤمنون ، ففازوا بالصبر عليها ، بينما هوت الطواغيت المتفرعنة وذيولهم من الأتباع الخاسرين إلىٰ قاع الرذيلة.

فالإنسان مع ما حوله في مواجهة مستمرة ؛ فإما إلىٰ قناعة وتبنٍّ ، أو إلىٰ رفض وممانعة ، ولربّما إلىٰ حياد يتشكّل ضمن ظروفه ومناسباته ، فقد تكون للإنسان علاقة ودّ وحبّ مع مفردات هذا الكون وقد يطغىٰ هذا الحبّ

---

(١) سورة العنكبوت : ٢٩ / ٤١.

(٢) سورة العنكبوت : ٢٩ / ٢.

ويتحوّل إلىٰ ولاء كبير ، فيكون فيه مولىٰ خاضعاً لصاحب هذه الولاية ورمزها ويعيش في محرابها ، ويتعبّد من خلالها ، وقد يكره ويبغض فيعايش الرفض أو الحقد بعينه.

ولكن الإسلام وضع لهذا الحبّ وذلك الكره ضوابط ومبيّنات يستدلّ بها لكشف السبيل وتحديد مشاعر الحبّ والكراهية ، وعلى الرغم من ذلك فقد تضعف إرادة الإنسان أمام المال أو الجاه أو الشهوة أو السلطان وأضرابها ، فتتشكّل من حوله دائرة الولاء ويكون أسيرها المغلول والتابع المطيع لحركة هذه الرموز والعناوين الخالية من القوّة الحقيقية.

وهكذا تختلط الأوراق في أذهان الناس فيتصوّرون القوّة والرزق والعطاء عند فاقديها فينتسبون بشكل من الأشكال إلىٰ هذا الضعف الحقيقي الذي لا يملك نفعاً ولاضرّاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، ولربّما يكون في وثن يعبدونه من دون الله أو طاغوت أو جماعة ظنّاً منهم أن هذه الرموز الضعيفة هي مصدر القوّة والعطاء ، وأنّها قادرة علىٰ الضرّ عنهم ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** ﴾ [1].

أمّا أولياء الله فيمثلون رموز القوّة واليقين والثقة بالله والافتقار إليه ، قال رسول الله ﷺ : « **ثلاث خصال من صفة أولياء الله : الثقة بالله في كلّ شيء ، والغنىٰ به عن كلّ شيء ، والافتقار إليه في كلّ شيء** » [2].

---

(١) سورة العنكبوت : ٢٩ / ١٢.

(٢) بحار الأنوار ١٠٣ : ٢٠ / ٢.

وقد ضرب الله مثلاً للذين يوالون غير الله سبحانه كاشفاً الضعف الذي ينتمون إليه ، فاختار لذلك بيتاً هو أوهن البيوت وأضعفها ، فالمعروف الشائع أن البيت يحفظ أهله ويدفع عنهم الحرّ والبرد والأذىٰ مضافاً إلىٰ منافعه الأُخرىٰ الكثيرة ، ولكن بيت العنكبوت فاقد حتىٰ لهذه الصفات الضرورية لكلّ بيت ، هذا البيت غير قادر علىٰ دفع الضراء أو جلب المنفعة ، وتعصف به الريح وتحطّمه الحركة الصغيرة أو الصدمات الحقيرة ، وإن لم يدركوا ضعف هذه الولاية الأرضية ف ﴿ **إِنَّ اللَّـهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [1] صاحب العزّة القويم والعالم الحكيم.

المملوك الشريك

﴿ **ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ [2].

يعبّر القرآن الكريم فيبعض المواقف عن الشرك بالظلم ، فقد عقب تعالىٰ بعد هذه الآية بقوله : ﴿ **بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ** ﴾ [3] ويستفاد من السياق أنّ الذين ظلموا هم المشركون ، وتصف الآية المباركة هؤلاء الظالمين المشركين بأنهم يتّبعون أهواءهم وأمزجتهم من غير دليل علمي

---

(١) سورة العنكبوت : ٢٩ / ٤٢.

(٢) سورة الروم : ٣٠ / ٢٨.

(٣) سورة الروم : ٣٠ / ٢٩.

أو فحص دقيق ، ومما تجدر الإشارة إليه أنّ مفهوم الشرك يتّسع لمعان كثيرة ، ومن هذه الأنماط أن قسماً منهم يؤمنون بوجود الخالق المدبّر ، ولكن العبادة عندهم يجب أن تتوجّه لأرباب وآلهة صغار ، كالأصنام أو الكواكب أو الشركاء الذين يُفْرَضُون ـ وهذا شأن الوثنيين ـ ولكن في هذا المطلب تكمن مغالطة كبيرة وهوّة تعرّي المنطق الوثني وتحجّه من غير حجّة خارجية إلّا برهان المناقضة الذي يلفّ اعتقادهم ذاته ، فهل المخلوق كالخالق ؟ وهل يفترض في المخلوقات الجنّ والملائكة وغيرها أن تكون شركاء لله سبحانه مع أنها فقيرة ومحتاجة إلىٰ فيضه سبحانه ، وتستمدّ وجودها من ذلك الفيض الواسع الكبير ؟ أنىٰ يكون ذلك ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [1] ؟!

فكلّ الصفات التي يتّصف بها المخلوقون من العلم والحياة والوجود وغيرها كثير ، هي صفات ناقصة لها مطلق واحد هو الله سبحانه مرجع هذه الصفات ومصدرها المطلق ، وقد أكّدت الآيات في هذا المقطع القرآني علىٰ إرجاع النعم والموجودات لله بعبارة ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ .. ﴾ مثل : خلق الإنسان من تراب ، وخلق الأزواج ، وجعل المودّة والرحمة ، وخلق السماوات والأرض ، واختلاف البرق خوفاً وطمعاً ، وإنزال الماء من السماء لإحياء الأرض بعد موتها ، وقيام السماء والأرض بأمره وغيرها ، ثمّ جاء قوله تعالىٰ : ﴿ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ [2].

---

(١) سورة النحل : ١٦ / ٦٠.

(٢) سورة الروم : ٣٠ / ٢٦.

وفي هذه الآيات استدلالات عملية ووجدانية على ضرورة الانتماء والانتساب لله الواحد الذي لا يشاركه أحد من خلقه في شيء ، ولذلك ـ وباستفهام إنكاري ـ ضرب القرآن الكريم مثلاً من أجل أن يكشف لهم هذه المغالطة وبطلان اعتقادهم من خلال واقعهم الذي يعيشون فيه ، ومن خلال عادة الرقّ المستحكمة في حياتهم ، ذكّرهم القرآن الكريم بأنه هل يمكن أن ينازعكم العبيد والمماليك الذين تملكونهم ؟ وهل تخافونهم كما تخافون أنفسكم الحرّة ؟! وإذا لم يصحّ ذلك . وهو كذلك . فكيف تعبدون مخلوقات من دون الله ؟!

وقد جاء في معنى الآية : أي ترضون أنتم فيما تملكون شريك ، فكيف ترضون أن تجعلوا لي شريكاً فيما أملك. (١)

وعليه فلا تصحّ لهم هذه المشاركة ، وإنهم بحاجة إلىٰ تحكيم العقل السليم الذي يستفيد من بيان الآيات ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٢).

القلوب أوعية المعاني

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي

---

(١) أنظر : تفسير علي بن إبراهيم القمّي ٢ : ١٥٤.

(٢) سورة الروم : ٣٠ / ٢٨.

الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ [1].

في سياق بيان الحقّ والباطل وتشخيص الإيمان من الكفر ، جاء هذا المثل ليكشف عن إمكانية وسعة المحل الذي يكون مكاناً للاعتقاد والتبنّي ، فقد نواجه في حياتنا مراتب عديدة من المؤمنين ؛ فمنهم الشديد في إيمانه ، ومنهم دون ذلك وهكذا حتّى يضعف عند آخرين إلىٰ درجة الضمور والتلاشي ليظهر الكفر ويأخذ مراتبه ، فمبدأ السعة والضعف في قبول الحقّ يشكل الزاوية الأساس في ضرب هذا المثل وقد عبّر عن ذلك بكلمة « بقدرها » .

وقد جاء هذا المثل مشبّهاً القرآن والتعاليم الإلهية بالماء النازل من السماء ـ لمناسبة سموّ وعلوّ هذه الأفكار ـ أو هو تشبيه الحقّ بالماء ، والباطل بالزبد ، والقارئ لهذه الآية المباركة يقف أمام مشهد عظيم القدر ، وكأنّه ينظر إلىٰ بطون الوديان الواسعة والضيّقة منها وهي تستقبل الماء النازل من السماء ليندفع بقوّة ، ويطفو علىٰ سطحه غثاء زبد منتفخ ، فيخيّل للناظر أنّ الغثاء والزبد هو كلّ شيء في هذا السيل ، بينما هو في حقيقته لا يشكّل شيئاً نافعاً ، ويبقىٰ النفع والخير في حركة الماء غير المشهودة بوضوح تحت هذا الزبد والغثاء الذي يذهب ويزول ، وهذا شأن الخبث كذلك أيضاً يظهر علىٰ سطح المعادن المنصهرة منأجل حلية كالذهب والفضة أو متاع وفائدة مادية كصهر الحديد والرصاص ، بينما يبقىٰ النفع والخير في الذهب نفسه والحديد ذاته اللّذين يطفو عليهما هذا الخَبَث الذي لا فائدة فيه.

قال علي بن إبراهيم القمي : أنزل الحقّ من السماء فاحتملته القلوب بأهوائها ؛

---

(١) سورة الرعد : ١٣ / ١٧.

ذو اليقين علىٰ قدر يقينه ، وذو الشكّ علىٰ قدر شكّه ، فاحتمل الهوىٰ باطلاً كثيراً وجُفاءً ، فالماء هو الحقّ ، والأودية هي القلوب ، والسيل هو الهوىٰ ، والزبد هو الباطل ، والحلية والمتاع هو الحقّ. [1]

وكذلك قدر هذا السيل المندفع في قلب هذه الأودية ، ينسجم مع سعة هذه الوديان ، فهذه الوديان يكون حظّها من الماء النازل بقدرها ، فتتباين الحصص إذن ، وليس هذا التباين نابعاً من الماء نفسه ، وإنما من طبيعة وسعة المحلّ المتلقّي له.

قال علي بن إبراهيم : الكبير علىٰ قدر كبره ، والصغير علىٰ قدر صغره. [2]

وهكذا تتنوّع المستويات الإيمانية ، وتتباين القدرات ، وتختلف الالتزامات من شخص لآخر ومن مجتمع لآخر كلّ حسب طبيعة المحلّ الذي هيّأه ومقدار الأثر الذي تركته عنايته واهتمامه بنفسه من أجل تعبيدها لله سبحانه ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** ﴾ [3] فقد فتح الله سبحانه علىٰ المخلص من المؤمنين رحمته ، وينوّر ساحته بنور التوحيد ، ويجعل له نوراً يمشي به في الناس ، فيتّسع بذلك حظّه من التعاليم الإلهيّة ومعارف القرآن والحكمة ، وينتفع بإصابة الحقّ في الدنيا والآخرة.

قال علي بن إبراهيم : من أصاب الزبد وخَبَث الحلية في الدنيا لم ينتفع به ، وكذلك صاحب الباطل يوم القيامة لا ينتفع به... ومن أصاب الحلية والمتاع في

---

(١) تفسير القمّي ١ : ٣٦٢.

(٢) تفسير القمّي ١ : ٣٦٢.

(٣) سورة العنكبوت ٢٩ / ٦٩.

الدنيا انتفع به وكذلك صاحب الحقّ يوم القيامة ينتفع به. [1]

خشوع الجبل

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [2].

تجيء هذه الآية في سياق آيات تدعو المؤمنين للتقوىٰ والتهيّؤ ليوم الحساب وتنهىٰ عن نسيان الله سبحانه ، وهنا تثار مسألة هامة في عملية التغيير القرآني ، وهي مقدار الاستجابة وصلاحية مداخل الهداية لدىٰ هذا الإنسان ، فلربّما يتعظ الإنسان بموقف وكلمة وإثارة واحدة ، بينما نجد آخرين قد طُبعَ علىٰ قلوبهم ، لا يفقهون ما يتلىٰ عليهم ، ولا تزيدهم آيات الله سبحانه سوىٰ الانحدار صوب الرذيلة وتكوين الخطيئة وكأنّهم صخور صمّاء. ولكن من هذه الحجارة ما يتفجّر منها الأنهار ، فتخضرّ جنباتها ، وتضحك الطبيعة من حولها.

فما أقبح الاستكبار والتعالي أمام عظمة القرآن وعلوّ معانيه وسموّ أفكاره ! فهو كلام الله الصادق والوحي الكريم ، وهذه الأفكار المنزلة من لدن حكيم عليم لا ترقىٰ إليها أيّة معرفة أخرىٰ ، ولا تجاريها أية قدرات مهما عظمت ، فهي مخلوقة لمبدع هذه الأحكام وصانعها.

فالقرآن الكريم بأحكامه وأمثاله ومواعظه وبشائره وإنذاراته قدسٌ طاهرٌ

---

(١) تفسير القمّي ١ : ٣٦٢.

(٢) سورة الحشر : ٥٩ / ٢١.

يلقي بالهيبة والتقدير في قلب من يتدبّره ويتأمّل في عظيم آياته ، وليس هو بكتاب بشري وصناعة إنسانية حتّىٰ يحوطها النقص ويدخل الشكّ في النفوس بقيمة هذه الأفكار ، فكيف يمكن لمن يعرف ذلك ألّا يتّعظ به ولا يستفيد من عطائه إذن ؟! ولذلك ضرب القرآن ـ هذه المرّة ـ مثلاً لبيان قيمة القرآن وعظمة أفكاره ومهابة قدسه ، والصورة البلاغية في هذا المثل القرآني العظيم تعبر عن واقع غير منظور ، ولا استحالة في وقوعه فلو أراد الله سبحانه إنزال هذا القرآن علىٰ الجبل العظيم الشامخ المتين الراسخ لتصدّع وتزلزلت صخوره العظيمة من خشية الله وعظمته فما بال بعض هذه النفوس والقلوب التي لم تنفعل بفعل هذا التنزيل المبارك ؟ ولم تتّعظ بأحكامه المقدّسة ومعانيه الساميةالتي أبت حتّىٰ السمٰوات والأرض والجبال حملها ولم تطق هذا الثقل العظيم والأمانة المقدّسة ، بينما يهيّء الله سبحانه هذا الإنسان لهذه الوظيفة المقدّسة والعمل الكريم ، فَلْيَتَّقِ اللهَ سبحانه ويتهيّأ ليوم الحساب ، ولا ينسىٰ الله فينساه من رحمته.

الحمل لا التحميل

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [1].

الظاهرة الإسرائيلية في المجتمعات قد تتّخذ أشكالاً متعدّدة سواء علىٰ مستوىٰ التصوّر والتكفير أو الممارسة ، وهذا التشكيل لم يتوقّف علىٰ مقطع

---

(١) سورة الجمعة : ٦٢ / ٥.

زمني محدّد بل يظهر علىٰ امتداد هذه المسيرة البشرية ، ومن معالم هذا الظهور هو « تبديد النعمة وعدم الاستفادة ممّا هم عليه » فقد تفتقد الجماعة أحياناً طريق الخلاص ومبادئ العمل ، فيتوجّب عليها البحث والتفحّص حتّىٰ تأمن الفتنة والمنزلق في عملها ، وقد تكون الجماعة مالكة لهذه المبادئ ولكنها غير واعية لها وغير مستفيدة من عطاءاتها ، فتظلم الأمة تاريخها وتجحد نعمتها ، وتبدأ تسوّلاً فكرياً وحالة استجداء ذليلة تلعق بها فضلات الموائد فترمي بعزّتها في سوق النخاسة ، وأتذكر موقف أحمد الشقيري المسؤول الفلسطيني السابق في لقائه مع ماوتسي تونغ ، إذ طلب الأول إيديولوجية للثورة ومرتكزاً فكرياً للعمل !! فردّ عليه : إنكم تملكون ذلك ، ولديكم تاريخ إسلامي طويل تستفيدون منه.

وقد تجد إنساناً مسلماً يهوىٰ ثقافة غربية أو شرقية ، ويتطلّع لطريقتهم في التعامل ويتأثّر بأخلاقيتهم ، ويترك صرحاً كاملاً من الفكر والتربية الإسلامية ، وهذا ما حصل لكثير من المسلمين عقب عمليات التغريب والغزو الفكري للمنطقة.

وقد كشف القرآن الكريم هذه لحالة لدىٰ بني إسرائيل ، وأوضحها بمثال مثير فبيّن ان الحمار ما لا يفقه منه شيئاً ، فحالة بني إسرائيل حين حُمّلوا العمل بما جاء في التوراة من أحكام وتعليمات وأخبار ببشارة ظهور النبي محمد ﷺ ووجوب تصديقه ، تركوا ذلك ولم يحملوه ، ويصدق الشاعر في هذا الموطن حين يقول مشبهاً :

كالعيس في البيداء يقتلها الظما

والماء فوق ظهورها محمول

فالحافظ لكتاب الله بلا عمل له يلحق به هذا المثال أيضاً ، وكذلك من تلاه ولم يفهم معناه وأعرض عنه إعراض من لا يحتاج إليه.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « **ربّ تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه** » [1].

وقال الإمام الصادق عليه السلام : « **من قرأ القرآن ولم يعمل به ، حشره الله يوم القيامة أعمى** » [2]

وقيل : **الحمل** ليس هو الحمل على الظهر ، انما هو الحمالة بمعنى الكفالة والضمان ، فلم يحملوها : أي لم يؤدّوا حقّها ، ولم يحملوها حقّ حملها.

والأسفار : جمع سفر ، وهو الكتاب الكبير ، لأنه يسفر عن المعنى إذا قُرِيء. وقد استعمل الحمار في المثال لإظهار جهلهم وبلادتهم وزيادة في الذلّة والحقارة.

فليس لهم من هذا الحمل إلّا الثقل والتعب ، ويتوجّب علينا جميعاً أن نواصل المسيرة ، ولسنا بحاجة إلى استيراد طريق للعمل والتفكّر بعد أن منّ الله علينا وحمّلنا الرسالة الخاتمة.

العمل أوّلاً

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ

---

(١) بحارالأنوار ٩٣ : ١٨٤ / ١٩.

(٢) ثواب الأعمال : ٣٣٧ / ١.

﴿ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ * وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[1].

من أجل أن تثبّت القيم ويسود المقياس حياة الناس ، ومن أجل أن تندفع الشبهات والافهام اللخاطئة التي تعيش علىٰ مقربة من حركة المفاهيم بين الناس ، يسجّل القرآن الكريم كلّ مرّة احكامه ومقاييسه وبطريقته المتميّزة بقوّة العرض ، والتي تطالب مخاطبيها بالتوجّه صوب التطبيق وعدم التخلّف أمام هذه النداءات المقدّسة. وفي هذه المرّة تعرّض القرآن الكريم إلىٰ مسألة حسّاسة تتعلّق بمشاعر الأمة ، وتنحسب عليها اعتبارات اجتماعية ، وعلىٰ الرغم من هذه المواجهة النفسية الشديدة انتزع القرآن مطلبه في بيان حقيقة الاعتبار الذي تبتني عليه المواقف الإنسانية ، فقد نسف من الجذر وإلىٰ الأبد الاعتبار الموهوم للرابطة النسبية والسببية ما لم تتزيّن بزينة العمل الصالح وتتّزن به ، فلقد عوتب الرسول ﷺ في سورة التحريم بأنه حرم علىٰ نفسه شيئاً أباحه الله له من أجل إرضاء بعض أزواجه ، ثمّ جاءت الآيات مهدّدة زوجي الرسول ﷺ بأنهما إذا تظاهرا بينهما وتعاونا عليه ﷺ بما يحرجه فانه ليس وحده بل الله مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة ، ثمّ ذكّر القرآن أزواجه بأنه إذا طلّقهن فسوف يعطي رسوله خيراً منهُنّ.

وفي هذا السياق ذكّر القرآن الكريم بمقياسه الثابت في هذه الدائرة الاجتماعية ، وراح يؤكد علىٰ أنه لا اعتبار إلّا للعمل ، وأما الروابط والعلاقات

---

(١) سورة التحريم : ٦٦ / ١٠ . ١١.

النسبية أو السببية فلا تدفع مكروه الخطأ ولا تجلب منفعة الصحيح ، ولذلك ضرب القرآن الكريم مثلين :

أحدهما : للذين كفروا فعلىٰ الرغم من أن نوحاً ولوطاً عليهما السلام من أنبياء الله لكنهما ابتليا بزوجتين خائنتين ، فكانت زوجة نوح تستهزىء به وبرسالته ، وأما زوجة لوط فكانت تدلّ قومها علىٰ ضيوفه ، وتتآمر معهم علىٰ زوجها ، فهُما إذن خائنتان واستحقّا دخول نار جهنّم ، فما أغنىٰ عنهما زوجاهما من عذاب الله شيئاً.

والثاني : للذين آمنوا ، فقد ذكر القرآن الكريم امرأة فرعون ، ذلك الطاغية الذي ادّعىٰ الربوبية وبلغ في الشرك مبلغاً عظيماً ، وعلىٰ الرغم من كفره الشديد لكن زوجته « آسية بنت مزاحم » كانت من المؤمنات ، ولم يمنعها من ذلك كفر زوجها ، ولم تتعلّق بإيمانها شائبة من زوجها ، ودعت عليه ، وطلبت من الله أن ينجّيها منه ومن قومه الظالمين.

فالميزان الحقيقي والاعتبار الصحيح إذن ، إنما يعود علىٰ ما يقدّمه الإنسان من عمل ولا قيمة لمثل هذه الانتسابات التي يفرضها المجتمع ، أو تصنعها ظروف اجتماعية خاصة ، قال الإمام الرضا عليه السلام : « **قال رسول الله صلى الله عليه وآله لبني عبد المطلب : ائتوني بأعمالكم ، لا بأنسابكم وأحسابكم** » [1].

وقال الإمام الصادق عليه السلام : « **قال رسول الله صلى الله عليه وآله : والله لعبدٌ حبشي أطاع الله ، خير من سيّد قرشي عاصٍ لله ، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم** » [2].

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ٢٣٥ / ٧.

(٢) تفسير القمّي ٢ : ٩.

ثمّ نلاحظ انه بإمكان الفضيلة أن تنشأ وتكبر في بيت الطغاة كبيت فرعون ، كما يجوز أحياناً أن تحجّم الإرادة التغييرية الإسلامية عن تغيير أقرب النقاط الاجتماعية لها علىٰ الرغم من انجازاتها العظيمة وشمولية التغيير لمساحة كبيرة من مجتمع الناس.

النية في العمل الصالح

﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ [1].

إنّ كلّ الأعمال والنشاطات وما يقوم بع الإنسان في حياته مرهون بأمرين :

١ ـ مدىٰ الصلاح في هذه الأعمال ومقدار النفع الذي تؤدّيه ، ويجب أن يكون الصلاح منضبطاً بحدود الشريعة الإسلامية المباركة ، فليس كلّ عمل ينتفع منه يجب أن يكون بالضرورة مقبولاً عند الله ، فإن من يعمل من أجل توفير الطعام لجيش الكفر والضلال مثلاً لا يعدّ عمله مقبولاً عند الله سبحانه ، بل يعاقب عليه علىٰ الرغم من الأثر الذي يتركه في الاطعام ، وعدم قبوله نابع من كونه غير منسجم مع ضرورات الشريعة الإسلامية.

٢ ـ القصد ونية القربىٰ إلىٰ الله سبحانه ، فالنية أبلغ من العمل حين يتوجّه الإنسان لتأدية أعماله ، قال الإمام الباقر عليه السلام : « **نيّة المؤمن أفضل من عمله** » [2] فإنْ فقد العمل هذا اللون من القصد لم يكن ذا غاية ، وإن تورات نية

---

(١) سورة إبراهيم : ١٤ / ١٨.

(٢) علل الشرائع : ٥٢٤ / ٢.

القربىٰ إلىٰ الله سبحانه من هذه الأعمال فإن هناك نيّات أُخرىٰ دونها تحكمها.

وعليه فالعمل المقبول هو العمل الصالح في نظر الشريعة الإسلامية ، ويستند إلىٰ النيّة الخالصة لله سبحانه ، وما دون ذلك من الأعمال التي يختلط فيها الصلاح والنفع من دون هذه النيّة ، أو يحاول صاحبها أحياناً عقد هذه النية لأعمال ضارّة أو مزاحمة لحدود الشريعة الإسلامية ، كمن يريد الإساءة إلىٰ مؤمن ما اختلف معه في برنامج اجتماعي أو ممارسة عملية ظنّاً منه أنه بذلك يفقده اعتباره ويخلص منه كعقبة في طريق عمله ، هذه الأعمال مرفوضة وغير مقبولة ويعاقب عليها صاحبها.

ونستطيع أن نواجه نماذج عديدة من الناس وهم يظنّون أنهم يحسنون صنعاً بأعمال محبطة باطل ثوابها ؛ وذلك لعدم توفّرها علىٰ ضوابط قبول العمل عند الله سبحانه.

ومن أجل أن يتمّ القضاء علىٰ هذه التوهّمات وما تستبطنه من جدل وإثارات عقيمة ، راح القرآن الكريم يؤكّد علىٰ بطلان أعمال الذين كفروا بربّهم وإن كان في بعض أعمالهم جوانب منفعة وصلاح ، ولكن لكفرهم وعدم حصول التوجّه والقصد إلىٰ الله سبحانه في أعمالهم تعرّضت للحبط وبطلان أثرها تماماً ، وقد زاد القرآن الكريم في هذا الوصف إثارة ، فَمَثَّلَ هذه الأعمال الباطلة الأثر بالرماد الذي تعصف به الريح الشديدة فيندفع متطايراً في هذا العصف القوي ، فلا يتمكّن صاحب الرماد أن يحافظ عليه ، فيبقىٰ بلا عمل ويقبل علىٰ الله مديناً ومداناً في ساعة الهول ، فما أشدّ ضلالته وما أبعده ﴿ **ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ** ﴾ [1] !

---

(١) سورة إبراهيم : ١٤ / ١٨.

حين يكون العمل كالسراب

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ (١).

السراب : ما يتراءىٰ للعين لامعاً في الفلوات شبيه بالماء الجاري ولا حقيقة له. **والقيعة والقاع** : المنبسط المستوي من الأرض. **والضمآن** : العطشان. **وبحر لجيّ** : البحر الذي يكون قعره مظلماً جدّاً. والكافرون : هم ذلك النشاز في مسلسل هذا الكون المرتّب البديع وقد يغطّي الكفر أرضاً واسعة ، ويحكم ممارسات ومواقف ، وكثيراً من المعتقدات ، وربّما نراه في زوايا بعض أفعالنا وقد دخلها خلسة أو بسبب فهم عاطل لبعض الأمور ، فلذلك وخوفاً علىٰ مصيرنا عند الله سبحانه علينا أن نفتّش في هذه الزوايا ، وندقّق جيداً في مسيرتنا نحو الله ، لنشطب أي عنوان أو مشخّصات ترمي بنا صوب ذلك النشاز والفسوق عن طاعة الله إلىٰ عبادة الهوىٰ والذات والتصوّرات ، فتنفكّ بها عقد ذلك الإيمان الخالص بسبب عبادة جزئيات تحتلّ مواقع اعتقادية وقدساً موهوماً ، فالكافرون يعيشون حسابات غير متقنة ، ووهماً يؤمّلون عليه ، ويحسبون أن

---

(١) سورة النور : ٢٤ / ٣٩ . ٤٠.

لأفعالهم قيمة ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [1] ولكن لا قيمة لأعمالهم ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ [2].

وحين يكفر هذا الإنسان بالله العظيم يجعل الله حياته ظلمة لا نور فيها ، فهو في وحشة الظلام ورعبه ، ينتابه الخوف من جوانبه ولا ينعم بنور الإيمان ، وقد ترجمت لنا هاتان الآيتان المباركتان حالة ومصير الكافرين في مثالين واقعيين « مثالي السراب والظلمة » لبيان مصيرهم في الآخرة ، وحالهم أثناء كفرهم في الحياة الدنيا.

ففي مثال السراب : تذكر الآية المباركة أن الظمآن يعتقد أنّ لمعان السراب هو الذي يروي ظمأه ، فتراه يُسرع إلىٰ ذلك الريّ الموهوم ليأخذ قيمة ما أدّاه من عمل ، وإذا به يفاجأ ويباغت بانعدام قيمة ما قدّمه ، وهكذا حال مَن خالف ربّه وجحده وكفر بأنعمه سوف لن يجد غداً ما يقدمه من عمل إزاء محاسبته علىٰ ما فرّط به في حياته ، وبالنتيجة فالكافر لا يحصل علىٰ جزاء لكلّ ما عمله إلّا العقوبة والعذاب.

أما المثال الثاني : فيترجم لنا حياة الكافرين وكأنها ظلمات ثلاث ؛ ظلمة البحر والموج والسحاب ، وهي ظلمات متراكمة ، وقد فسّرها البعض بظلمة الاعتقاد والقول والعمل ، وقال آخرون : هي ظلمة القلب والبصر والسمع ، حتىٰ قيل : ان الكافر « قلب مظلم في صدر مظلم » وذهب آخرون إلىٰ ان هذه الظلمات الثلاث : كونه لا يدري ، ولا يدري انه لا يدري ، ويعتقد انه يدري ،

---

(١) سورة الكهف : ١٨ / ١٠٤.

(٢) سورة الفرقان : ٢٥ / ٢٣.

وقد مثّل القرآن الكريم هذه الظلمات بظلمة قعر البحر الشديد الظلمة الذي يزداد ظلمة بحركة موجه فيعلوه موج فوق موج وقد حجب السحاب كلّ نور فوقه ، فهي ظلمات بعضها فوق بعض إلىٰ درجة انه لا يستطيع أن يرىٰ يده إذا أخرجها ، فما قيمة هذه الحياة التي لا ترىٰ النور ؟ والله سبحانه هو جاعل النور ولا جاعل له سواه.

قساوة القلوب

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [1].

للنعمة أُسلوب وقوانين تحكم حركة الإنسان بازائها ، فليس من السنة الإلهية أن تقابل النعم بالجحود والإهمال ، وإلّا فانها تنقلب إلىٰ استدراج وإمهال من قبله سبحانه فتتحوّل هذه النعم نذير عقاب ، وهذه الصورة لها حضور بين بني الإنسان أنفسهم ، فهناك قواعد للفضل والعطاء ، وضعت بازائها ضوابط للشكر ، فإذا ما أخلّ أحد بفضل آخر قطع الثاني نعمته عنه ، ولربّما راح يفتّش عن عقوبة لذلك الجحود ، وقد ورد أن النعم تدوم وتزيد بالشكر ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [2] وبدون هذا الشكر فانها تزول ويعاقب أهلها ، ولا سيما

---

(١) سورة البقرة : ٢ / ٧٤.

(٢) سورة إبراهيم : ١٤ / ٧.

إذا انطبع موقف المنعم عليهم بالترف والابتعاد المفرط عن الجدية في العمل.

لقد عرضت الآيات المباركة جملة من النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل ، وهي نعم لم نزل مجموعة على سواهم ، كنجاتهم من البحر ، وإغراق آل فرعون ، وتضليلهم بالغمام ، وإنزال المنّ والسلوى ، وانفجار الحجر اثنتي عشرة عيناً ، وإنزال المائدة من السماء ، ورفع الطور وغيرها كثير.

وعلى الرغم من كلّ هذه النعم ، فهم لم يشكروا ، بل حين واعد الله موسى عليه السلام أربعين ليلة إذا هم يتّخذون العجل ربّاً لهم ، ثم إنهم يولون بعد أخذ الميثاق منهم ، ومنهم من يعتدي في سبتهم الذي حرم الصيد فيه ، وحين وقعت حادثة القتل بينهم وجلوا القاتل منَّ الله عليهم فأمرهم بذبح بقرة وضرب القتيل ببعضها حتى يكشف لهم عن قاتله ، وإذا بهم يشدّدون في اختيار هذه البقرة ، وأخذوا يسألون ويجابون عدة مرات ، فشدّد الله عليهم وذبحوها وما كادوا يفعلون.

ويقال : إنهم قست قلوبهم بعد هذه الحادثة ، فضرب الله لهم مثالاً على عدم استجابتهم وعدم طواعيتهم للأوامر الإلهية ، فعد قلوبهم القاسية المتبلّدة برين الخطيئة كالحجارة في قوّتها وقساوتها ، بل أشدّ من الحجارة ، باعتبار أن الحجارة قد تتفجّر أنهاراً أو تخرج منها عيون الماء بعد تشقّقها ، وهذا ما نشاهده في طبيعة المرتفعات والأراضي الجبلية ذات الحجارة الصلبة ، ومن الحجارة ما يهبط وينزل من أعلى ، وهذه كناية على ما يبدو عن طواعيتها وتنازلها عن كبريائها وارتفاع مكانها ، وكلّ ذلك محكوم بقانون الهداية التكوينية أو التسليم الكوني لله سبحانه ، والتي عبّر عنها : ﴿ **مِنْ خَشْيَةِ**

اللَّـهِ ﴾ [1] ثمّ ختم المثال بتهديد صريح شديد الوقع ، ويستفاد من هذا المثال في تعاملنا مع النعمة بأنه يجب أن نكون علىٰ يقظة شديدة في مجاراة هذه النعم واستحضار الشكر العملي لله سبحانه علىٰ الدوام ، اللهمّ اجعلنا من الشاكرين لنعمائك.

لا تأكلوا لحوم الناس

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [2].

عينت سورة الحجرات كثيراً ببناء المجتمع ومعالجة الأمراض الاجتماعية التي تهدّده ، وهذه السورة بحقّ يمكن أن تشكّل دراسة اجتماعية نفسية متكاملة فقد أثارت جملة من هذه المشاكل وصنّفتها في باب الأمراض والأخطار التي يجب التحذّر منها ، بينما دعت إلىٰ جوانب نفيسة شامخة ترمي إلىٰ تطهير الأمة وبنائها بناءً سليماً.

وفي هذا المثل القرآني تحدّثت الآية المباركة عن مسألة خطيرة تعدّ مرضاً فتّاكاً في تركيبة المجتمع وسلامة سيره ووحدة صفّه ، فقد ذكرت أمراضاً ثلاثة هي : ١ . الظنّ السيّء. ٢ . التجسّس. ٣ . الغيبة.

---

(١) سورة الحشر : ٥٩ / ٢١.

(٢) سورة الحجرات : ٤٩ / ١٢.

هـذه الأمـراض ترجـع إلىٰ منحـدر مشـترك ، وتسـتهدف ضـحية ، ويمـارس فيهـا رصـد الأحاديـث والأقاويـل في اغتيـاب صـاحبها ، ويظهـر ذلـك بشـكل خـاص في التجسّـس والغيبـة ممّـا جعـل بعـض المفسّـرين يـذهبون إلىٰ ان هـذا المثـال جـاء مضروباً للمرضين الأخرين لا للغيبة وحدها.

وقـد وردت روايـات كثـيرة في وجـوب اجتنـاب الظـنّ السـيّء ، وروي عـن أمير المؤمنين علي عليه السلام : « **ضع أمر أخيك علىٰ أحسنه حتىٰ يأتيك ما يقلبك منه ، ولا تظنّن بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً** » .

والمراد بالتجسّس : تتبّع ما استتر من أُمور الناس للاطلاع عليها في جانب الشرّ ، بينما التحسّس « بالحاء » يستعمل في جانب الخير ، وقد ورد النهي شديداً عن تتبّع عورات الآخرين.

والمراد الغيبة : فذكر أخيك بما يكره ، وقد وصفها الرسول صلى الله عليه وآله بأنها أشدُّ من الزنا ؛ لأن فاعل الزنا يتوب فيتوب الله عليه ، بينما المغتاب يجب عليه مراجعة من تناوله بالغيبة ليبرئه ، ولا تكفي التوبة وحدها في رفع العقوبة.

فقد تناول رجلان من المسلمين سلمان وأُسامة بن زيد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « **ما لي أرىٰ خضرة اللحم في أفواهكما** » فقالا : يا رسول الله ما تناولنا في يومنا هذا لحماً ! قال « **ظللتم تأكلون لحم سلمان وأُسامة** » [1].

وهذا التمثيل مستمد من المثل القرآني السابق ، وهو غاية في تأكيد المكروهية

---

(١) مجمع البيان / الطبرسي ٩ : ١٣٥ جوامع الجامع / الطبرسي : ٤٥٩.

والتهويل من خطورة هذا المرض الخبيث ، حيث يصور القرآن الغيبة بأنها أكل للحوم الآدميين ، وأي آدميين ! فقد عبّر القرآن الكريم بقوله : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ [1] وكان خطاب الآية نفسها للذين آمنوا ولا أخوة حقيقية في منطق القرآن إلّا للمؤمنين ، وما يجري في مجتمع المؤمنين أشدّ وأنكىٰ ، حتىٰ بلغ الأمر ببعضهم أن يجلسوا ويتشاوروا ويتناجوا من أجل تسقيط مؤمن ونزع اعتباره الاجتماعي حتىٰ لو اضطروا إلىٰ إضافة ولصق ما ليس فيه ، فهو بهتان أشدّ من الغيبة ، فلا يدرون وهم سادرون في ذلك حتىٰ تحترق حسناتهم ، فيقبلون علىٰ الله سبحانه بسيئاتهم وسيئات من تناولوه.

نقض العهود

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [2].

وردت هذه الآية بعد آيتين تعرّضتا لمباديء أخلاقية أساسية كالأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربىٰ والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي والايفاء يعهد الله سبحانه ، وقد توسّع هذا العرض القرآني عند هذا الأساس الأخير ، فشدّد

---

(١) سورة الحجرات : ٤٩ / ١٢.

(٢) سورة النحل : ١٦ / ٩٢.

العقاب علىٰ ناقصي العهد في الدنيا بأن يذوقوا السوء ، وفي الآخرة بعذاب عظيم ، وضرب لذلك مثلاً زاد في ذلّة هذا الجمع اللامبارك الذي نقض عهده ، ونكثه من بعد قوّة عقده.

ويُروىٰ أن هناك امرأة كلبية كانت تجمع رفيقاتها أول الصباح فيغزلن حتىٰ إذا ما انتصف النهار أمرتهن بحلّ غزلهن وفرط هذه العقود المبرمة من الخيوط المغزولة ، وهذا دَيْدَنُها كلّ يوم ، قلا هي تقف علىٰ حدّ لهذا التهوّر ، ولا يثمر عملها مهما جهدت نفسها ورفيقاتها.

هذه الصورة التي تكشف عن حماقة لا متناهية وعقل ضعيف تجسّد بشاعة الناقضين لهذه العهود علىٰ معرفة ورضىٰ منهم وقت إبرامها ، فهم إذن ضعفاء ليس لديهم ثبات علىٰ أبرموه مع غيرهم.

وقد وردت روايات كثيرة علىٰ وجوب حفظ المواثيق ورعاية العهد الذي يأخذه المرء علىٰ نفسه حتىٰ بلغت الأهمية بهذا الأمر فنهت الشريعة عن نقض العهود مع غير المسلمين ، وهذا ما يكشف عن حرص الإسلام علىٰ توفير الطهر النفسي والابتعاد عن رذيلة الضعف أمام الثبات علىٰ القناعة والموقف المسؤول.

وقد حذّرت هذه الآية الكريمة من أن تتّخذ الأَيْمَان وسيلة للخدعة والتضليل ، كذلك حذّرت هذه الآية من المبرر الذي سمح به البعض لأنفسهم في نقض هذه العهود ، بأن حلفاءهم ومن عقدوا معهم هذا العقد أصبحوا ضعفاء فيميلون مع القوي ضاربين وراءهم عرض الجدار ما أرموه من عقد علىٰ أنفسهم.

لو أردنا تجسيد هذا النفس القرآني الكريم في مجتمع المسلمين أو في العائلة الواحدة أو في الجماعة الإسلامية أو في أية شريحة تشدّها علاقات الودّ والمحبّة الإسلامية ، فإننا ندرك عمق المسؤولية وعظمة هذا التحمّل في ممارسة العقود

والاتفاقات والروابط التي أخذ في نائها رضوان الله سبحانه حتىٰ اعتبرت من ضمن الابتلاء ، فقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ﴾ [1] ومن خلال هذا الابتلاء تتمحّض النفوس وتتميّز المواقف ليعرف الثابتون من الناكثين ، والأقوياء في الله من الضعفاء أمام مصالح النفوس الضعيفة.

الصف الوحد

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [2].

تعالج سورة الصفّ جملة من الأغراض لعلّ أهمها :

١ . التأكيد علىٰ عقيدة التوحيد وحالة الانسجام بين رسل الله الكرام.

٢ ــ الإقرار بأنّ الإسلام هو الخلاصة والخاتمة في سير الرسالات ، والبشارة به ولزوم اتباعه.

٣ ــ الجهاد من أجل حفظ هذه العقيدة الإسلامية والدفاع عنها أمام المحاولات الرامية لاطفاء نور الله.

لقد عالجت الآيات الأُولىٰ من هذه السورة المباركة الموقف من الجهاد في سبيل الله.. وفي سبب النزول تبيّن الروايات أنّ جماعة من المسلمين سألت رسول الله ﷺ عن أحبّ الأعمال فذكر لهم الجهاد ، ولما دعوا إليه كرهه بعضهم

---

(١) سورة النحل : ١٦ / ٩٢.

(٢) سورة الصفّ : ٦١ / ٤.

ولم يستجيبوا. لذلك جاء الردّ الإلهي قويّاً كاشفاً عن ذلك العيب الخطير في التردّد والنكوص ، وعن الهوة القاتلة بين ما يدّعيه الإنسان وبين فعله ، وأنّ ذلك يبعث على غضب الله ومقته ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (١).

ثم تثير السورة مبدأً خلّاقاً يرسم للفرد حركته من خلال مجتمعه ليبادله الانسجام وينفعل في الاتجاه العام لهذه الحركة الاجتماعية من أجل أن تتناسب هذه الحركة مع عظمة الهدف الاسلامي المتمثل بالدفاع عن هذه العقيدة بوجه كلّ المحاولات الرامية لاطفاء النور الرسالي والنفحة الربّانية على وجود هذا الجسم المبارك ، ومن أجل أن يكون تحرّك هذا الفرد ضمن مجتمعه التوحيدي المسلم مثمراً متماسكاً قادراً على توجيه الضربة للأعداء ، ومن جهة أُخرىٰ يجب أن يوفّر القدره علىٰ دفع الخطر التياري الكافر.

إنّ أية مساهمة يبذلها كلّ منّا كأفراد مسلمين يجب ألّا تكون بمعزل عن الآخرين بل يجب أن تعتمد برنامجاً نابعاً من قلب التشريع ، قادراً علىٰ جمع وتثوير هذه الأمة المسلمة ضمن منطلقات واحدة وصوب هدف مشترك ، وعلى هدىٰ بيّن من غير تبعيض لهذا التوجّه أو تسويف بوحدتها.

وتأتي الآية المباركة ملقية حبّ الله المتعال علىٰ المقاتلين في سبيله في تيار متين واحد ، وهم يمثّلون صفّاً واحداً متماسكاً مرصوصاً كالبُنيان الذي اصطفت لبناته وتآخت مع بعضها متساندة متجاورة تتعانق من أجل وحدة الصفّ وقوّته.

---

(١) سورة الصف : ٦١ / ٢ ـ ٣.

ومن نافلة القول أن نذكر بأننا مطالبون اليوم بوحدة متراصة متآخية متآلفة للوقوف صفّاً واحداً بوجه أعداء العقيدة الإسلامية ومصالح امتنا المظلومة ، ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [1].

---

(١) سورة آل عمران : ٣ / ١٠٣.

المحتويات

مقدمة المركز ٥
مقدمة المؤلف ٧
المثل القرآني ٩
سلاح الكلمة ١١
خطاب المبعوثين ١٤
التناجي بالإثم والعدوان ١٦
الاستقامة طريق العمل ١٨
الاستقامة لا الانكباب ٢٠
شجاعة التصدّي ٢٢
الحواريون ٢٤
الظاهرة والضرورة ٢٤
الأمة الوسط ٢٦
الوحدة مبدأ حضاري ٢٨
اعرف الحقّ تعرف أهله ٢٩
لكي لا تضيع المقاييس ٣٢
المواقف ٣٤
بين الظن والابتلاء ٣٤

بلاء النعمة ٣٦
من اللجاجة الىٰ التشدّد ٣٨
الأنداد الضالون ٤١
الغرور القاتل ٤٣
الدنيا متاع الغرور ٤٥
الدنيا هشيم يحترق ٤٧
الفرد المخدوع ٤٩
لا حوار مع اللّاغين ٥٠
المودّة المذبوحة ٥٢
خطر النفاق ٥٥
هوية المنافق ٥٦
المنافقون هم العدوّ ٥٩
ظلمة النفاق ٦٢
ضياع المنافقين ٦٤
النفاق تشكيك وطعون ٦٦
نماء الإنفاق ٦٨
آفة الانفاق ٧٠
الهداية حياة ٧٣
الهداية بعد الانشراح ٧٥
فضيلة البصير ٧٧

العبودية المعطَّلة ٧٩
حين تتعملق القيم ٨١
صنميّة الإتباع لدى المشركين ٨٤
الكشّاف ٨٦
ولاية العنكبوت ٨٩
المملوك الشريك ٩١
القلوب أوعية المعاني ٩٣
خشوع الجبل ٩٦
الحمل لا التحميل ٩٧
العمل أوّلاً ٩٩
النية في العمل الصالح ١٠٢
حين يكون العمل كالسراب ١٠٤
قساوة القلوب ١٠٦
لا تأكلوا لحوم الناس ١٠٨
نقض العهود ١١٠
الصف الواحد ١١٢
المحتويات ١١٥